محمد سيد أحمد الأقرع

اللعنات السبع

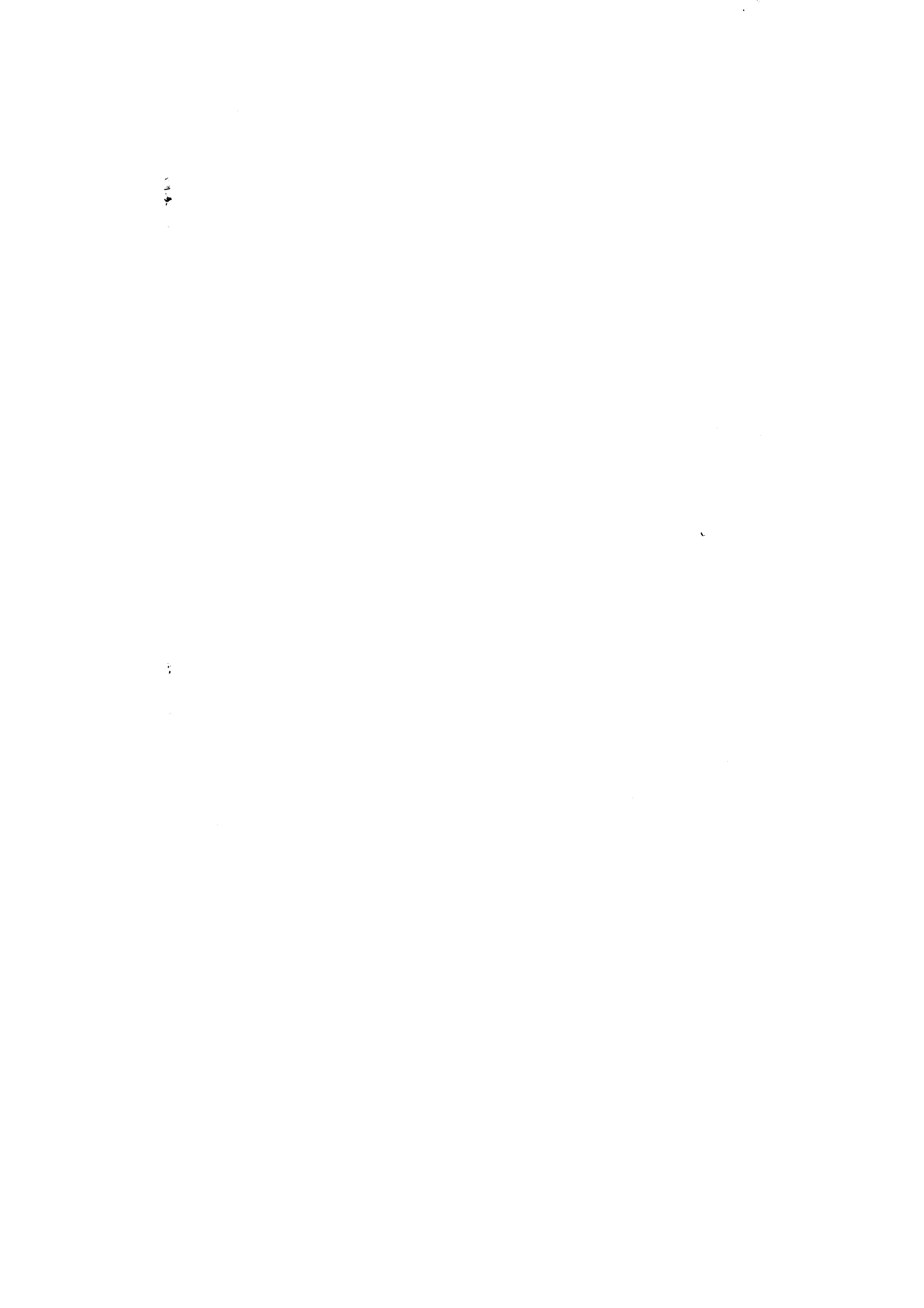
مُهلِكات الأفراد والشعوب

(دراسة تثبت زوال النِعَم بسبب الذنوب)



للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقي بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

بسم الله الرحمن الرحيم



"أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها"

(سورة محمد : ١٠)

ما أحوج الناس فى عصور الانحراف عن هداية الله أن يعرفوا خطر الذنوب وما تجره عليهم من دمار وهلاك وشؤم وشقاء ،،،

المؤلف

الفكرة .. والكتاب..

الفكرة التى اشتمل عليها كتابنا تدور حول معنى كبير : كيف ينتقم الله عز وجل من العصاة بعد الإنذار والإرشاد .

والدراسة التى نقدمها الآن لإثبات هذه العلاقة الوثيقة بين زوال النعمة ومعصية الله سبحانه وتعالى وبيان أن ذلك قانون ثابت لايمكن أن يتخلف وقدر من الله قدره على عباده المخالفين لأمره الخارجين عن سنته..

وهذا ماينبه إليه القرآن دائما فى قصصه فما ينتهى من قصة ويسدل الستار على أبطالها الذين انحرفوا بسبب النعمة والقوة وبريق الحياة حتى يبدأ فى قصة أخرى يُذكّر أصحابها بمأساة السابقين ويذكُر ماحل بهم ونزل بساحتهم لعل الحاضرين ينتبهون إلى سوء ما كانوا يعملون ويتعظون بما جرى عليهم .. وفى ذلك عبرة للحاضرين وتذكرة .

وهذه الفكرة جميلة ومثيرة فى وقت واحد .. خليقة أن تفجر ينابيع الإيمان فى قلوب الناس شرقا وغربا وتجعلهم يتجهون إلى الله فى سرائهم وضرائهم .. فى ليلهم ونهارهم ، وفى ذلك رضاه عنهم وهدايته لهم .

وهذه الفكرة ـ أيضا ـ حرية بالدراسة .. بالشرح والتفصيل والبيان لأنها تمثل خطا مستقيما وطريقا واضحا يمر بدعوات الرسل أجمعين وماحدث من أقوامهم معهم من سخرية وأذى واضطهاد ومانزل بهولاء الأقوام من تدمير وهلاك ومحق وإبادة ثم تنتهى المحطة الأخيرة لهذا الخط المستقيم عند مشركى قريش فى مكة وتذكيرهم وتنبيههم بما آل

إليـه أمر الأمم المجاورة مـن خسف ومـشـقـة واعـنـات وإرهاق وهـم سـوف ينـالهـم مثـل ماأصاب الأقـوام والأمم مـن قبـل مـن عذاب الذلة والـهـوان والجوع والخوف إن هم استـمـروا عـلى تكذيب رسول الله عـلـيـه الصلاة والسلام والسخرية منه وإيذاء أصحابه .

بدأت الفكرة طريقها المستقيم بما كان من قوم نوح حين كذبوه وسخروا منه واحتقروا شأنه واستهانوا بما هددهم به من العذاب فكان ما كان من جريان قانون الله عليهم بإهلاك المكذبين وإغراقهم وإنجاء القوم المؤمنين.

وتستمر الفكرة فى طريقها المرسوم فتمر بكثير من الأمم السابقة مثل "عاد" و"ثمود" و"سبأ" فتشرح الداء وتصف الدواء ولايقبل المريض الدواء فيكون الهلاك المحقق والموت الزؤام جزاء لمـن كـفر بنعمـة الله وجحـد فضله العميم .

وقفت الفكرة طويلا عند فرعون وملئه لأن المقام استدعى هذه الوقفة الطويلة.. فإن ادعاء الألوهية والكفر الصراح ومشاقة الله ورسوله موسى أمر يشيب مـن هوله رؤوس الولدان الصغار وتتزلزل الأرض مـن شدته وتخر الجبال من قسوته وترسل السماء رجومها على القوم الفاسقين.

أخذت الفكرة وقتا غير قصير تشرح وتوضح مانزل بفرعون وقومه من أنواع العذاب وأفاضت فى ذلك كثيرا بذكر الأنواع كلها مرتبة حسب ورودها فى الآية التى اشتملت عليها حتى يرجعوا عما هم فيه من عناد ومحادة لله ورسوله ولما لم يُجدْ ما سبق من نذُر ولما لم تُفدهم هذه الأنواع من العذاب ولم يرجعوا عن غيهم كان التدمير الشامل فأغرقهم الله فى البحر ومعهم الجيوش والقواد والمال واستراحت الأمة من الطغيان

والجبروت الذى جثم على صدرها وقتا من الزمان .

ثم تابعت الفكرة سيرها حتى كانت عند قرى قوم لوط فوجدت جريمة قبيحة ليس للبشرية بها عهد تردت الأمة فيها فارتكبتها دون حياء أو نكير فسلطت الأضواء عليها .. ضررها .. خطرها .. أثرها على المجتمع والإنسان واستمعت الإنسانية من بعد إلى صوت القرآن يجلجل محذرا من هذه الجريمة ومنذرا قوما فاسقين ، ولما لم يرجعوا إلى الصواب بتركهم هذه الآفة القذرة نزل بهم ماتراه مفصلا فى موضعه من هذا الكتاب .

ثم رأت الفكرة وفاء للموضوع أن تعطى نماذج عن أفراد نزل بهم مانزل بالأمم من زوال النعمة وتكدير الحياة السعيدة نتيجة لعصيانهم وفسوقهم وخروجهم على أمر الله، فإن الذنب هو الذنب والمعصية هى المعصية والفسوق عن أمر الله سبب تدمير الفرد كما هو مع الأمة سواء بسواء ..

وإذا كان قد بقى للفكرة من ضوء أخير على الموضوع فهو إنذارها المدوى للعالم كله فى شرق الدنيا وغربها أن يعود إلى الله .. إلى حكمه.. إلى هديه .. إلى طريقه المستقيم .. إلى كتابه وسنة رسوله ففيهما خلاصة مما هو فيه ..

هذا عن الفكرة ..

وأما عن الكتاب : فهو هذا الذى بين يديك أيها القارئ العزيز كتبته بيانا لهذه الفكرة وتأصيلا لها وشرحا حتى يعم الانتفاع به وهى دراسة ممتعة حقا وإن ظللنا نعيش فى أصفاد الذنوب بالحديث عنها وتوضيحها وتنبيه الناس إلى ضررها .

والكتاب ظل أمنية قائمة بالنفس مدة تقترب من العامين مع إلحاح

الدار على إنهائه حتى يتسنى طبعه ونشره وتداوله مع زملائه الذين سبقوه والنفس تسوف .. تقدم وتحجم .. فإن الكتابة الدينية قد كثرت كثرة هائلة تناولها إخصائيون وغير إخصائيين فى كل جانب من جوانب الثقافة الإسلامية ، فهل هناك مكان للكتابة بين هذا الحشد الهائل من المؤلفات؟

وإجابة على السؤال أقول : نعم ، بقى مكان وهى زوايا لم تملأ بعد فى جوانب هذه الثقافة وهى جوانب ينبغى البحث فيها والكتابة عنها .. ويجئ كتابنا هذا ليعالج موضوعا - لم تسلط عليه الأضواء كما ينبغى ولم تتناوله الأقلام بإفاضة - نحن فى حاجة إلى بيانه وشرحه وإخراجه للقراء الكرام فى وقت كثرت فيه القلاقل والفتن الكثيرة وأحاطت بنا من كل جانب ، فلعل فيه تبصرة .. ولعل فيه تذكرة .

وقد اشتمل الكتاب على أربعة فصول كبيرة هى هيكله العام عالج فيها الموضوع الذى اقترح للدراسة والشرح والبيان : .

الفصل الأول : تحدث عن المعصية: معانيها وتعاريفها . أنواعها . دواؤها.

والفصل الثانى : تكلم عن رحمة الله التى تسبق غضبه لعل فى هذا مايجعل المذنبين يعودون إلى ربهم بالتوبة والإنابة .

والفصل الثالث : حمل إنذارا وجهه إلى الناس : "احذروا غضب الله" فإنه سبحانه إذا رحم فسيغضب على من يتعدى حدوده فهو غفور رحيم كما أنه سريع العقاب .

والفصل الرابع والأخير : قد أخذ قدرا كبيرا من الدراسة لأنه وقف مع

المذنبين وجها لوجه ينذر ويحذر .. يرشد ويعظ ويذكر إن نفعت الذكرى ثم يتخلى كى يتولى الانتقام الإلهى حسم المسألة ، وكان ذلك بعنوان مهلكات الأمم والشعوب" .

وقد أخذ الكتاب أسلوبا سهلا فى طريقة العرض شأنه فى ذلك شأن إخوانه السابقين حتى ينتفع به كل قارئ على اختلاف الثقافة وتباينها .

فليأخذ كتابنا هذا – من فضل الله – مكانه من نفس القارئ الكريم كما كان لزملائه من قبل راجيا له من الله عز شأنه حسن قبول وتوفيق .

المـؤلف

الفصل الأول

المعصية

معانيها - أنواعها - دواؤها

معنى المعصية وعلاماتها ..

التعاريف والمعاني ..

أنواع من الكبائر ..

إمارات وعلامات ..

أمور يجب معرفتها ..

علاج ودواء ..

الناس فى أشد الحاجة إلى أن يدركوا ضرر هذه الذنوب التى انتشرت فى المجتمع البشرى انتشار النار فى الهشيم وكثرت أنواعها وتنوعت وسائلها وذلك على ضوء توجيهات الدين وهداه .

فوجب عليهم أن يفهموا حديث القرآن عنها ويعرفوا بيان النبى لها ويفقهوا شرح العلماء لأنواعها حتى يكونوا على بينة من آثارها المهلكة التى دمرت عليهم حياتهم وصدتهم عن سواء السبيل حتى يفهموا أن ضرر ذلك عائد عليهم ولن يضرالله من ذلك شئ .

وقبل كل شئ نحب أن نعرف معنى كلمة ذنب : هى الإثم ، فأثم إثما ومأثما وقع فى الإثم فهو آثم وأثيم : أى مذنب قال الله تعالى: "مناع للخير معتد أثيم"[1] أى ظالم متجاوز فى الظلم والعدوان كثير الآثام والإجرام . هذا من حيث اللغة ومعنى الكلمة فى الشرع "فعل شئ نهى الله عنه على لسان رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم" فإذا نهاك الله عن فعل شئ ثم فعلته يقال لك : إنك ارتكبت إثما وفعلت ذنبا وأنت بذلك قد تعرضت لغضب الله ان لم تتب "يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم...."[2] .

ومن هنا وجب عليك ان تفتش فى كل فعل تفعله وفى كل كلمة تقولها حتى تكون موافقا للإسلام تماما لاتزيد عليه شيئا فتكون قد اتهمت نبيك بالتقصير ولاتنقص منه شيئا فتضل عن سواء السبيل والله تعالى يقول : "وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون"[3] وقال تعالى وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهو"[4] وعلى ذلك

---

(١) سورة القلم (١٢) .

(٢) سورة التحريم (٨) .

(٣) سورة الأنعام (١٥٣).

(٤) سورة الحشر (٧) .

يكون معنى الذنب : هو الإثم والمعصية والسيئة والمنكر والشر والباطل والقبيح والمذموم هذا ما تعنيه كلمة ذنب .

والذنوب من حيث الهيكل منها الصغائر ومنها الكبائر وهذا هو رأى جمهور العلماء أخذا من قوله تعالى : "... وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان"[١] فجعلها ربنا ثلاثة وسمى بعض المعاصى فسوقا وبعضها عصيانا دون بعض قال ابن كثير: "والمراد بالفسوق الذنوب الكبار وبالعصيان جميع المعاصى" . وأخذا من قوله تعالى : الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم"[٢] واللمم صغائر الذنوب التى ترتكب دون مداومة عليها ومن غير قصد إليها ولاإصرار وأصل معنى الكلمة - لغويا - ماقل من الفعل وصغر .. من (ألمَّ بالمكان قل لبثه فيه وألمَّ الرجل من اللمم وهو صغائر الذنوب وقال:

إن تغفر اللهم تغفر جما
وأى عبد لك ما ألمَّا

وقيل إن معنى اللمم : هو المقاربة من المعصية - أى الاقتراب - من غير مواقعة .... وقال الاخفش : اللمم : المتقارب من الذنوب . وقال الفراء : إلا اللمم معناه إلا المتقارب من الذنوب الصغيرة . وأخذا من قوله تعالى : "إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما"[٣] صريح فى انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر قال الإمام الغزالى : لايليق إنكار الفرق بين الكبائر والصغائر وقد عرفا من مدارك الشرع ....

وعلى الرغم من أن رأى الجمهور من العلماء بشأن تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر صريح تؤيده هذه الأدلة من الآيات السابقة فإننا نجد بعض الأئمة ينكر أن فى الذنوب صغيرة منهم إمام الحرمين فى كتابه «الإرشاد» وأبو إسحاق الإسفرايينى والقاضى أبو بكر الباقلانى فقد قالوا : إن سائر المعاصى كبائر وكرهوا تسمية معصية الله تعالى صغيرة نظرا إلى عظمة الله سبحانه وتعالى وشدة عقابه وإجلاله

---

(١) سورة الحجرات . (٢) سورة النجم . (٣) سورة النساء (٣١) .

عز وجل عن تسمية معصيته صغيرة لأنها بالنظر إلى باهر عظمته كبيرة وأى كبيرة .

والآن مع الجمهور حتى نتعرف على رأيهم فى معنى الكبيرة وبالوقوف على معنى الكبائر سوف يتضح معنى الصغائر وقد سبق أن المعاصى عندهم صغائر وكبائر واستقر الرأى على ذلك . فما معنى الكبيرة عندهم ؟

والجواب : إن هؤلاء العلماء قد كثر بينهم عن هذا الأمر ولذلك رأينا لهم مجموعة من التعاريف للمعصية الكبيرة ولابأس من طرح بعض هذه المعانى وسنجد فى النهاية قربا شديدا بين كل هذه التعاريف من حيث المعنى وإن اختلفت فى الألفاظ فإن الكل يهدف إلى غاية واحدة وهدف واحد وهو بيان فحش المعصية وقبحها .

والآن مع التعاريف والمعانى

من العلماء من قال عنها - أى الكبيرة -: إن الكبيرة هى مالحق صاحبها وعيد شديد من كتاب الله تعالى أو سنة رسـول الله صلى الله عليه وسلم .ومنهم من قال : هى كل معصية أوجبت حدا على صاحبها . ومن قال : هى كل مانص الكتاب على تحريمه أو وجب فى جنسه حد . ومنهم من قال : هى كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث - اهتمام - مرتكبها بالدين .. ومنهم من قال : ليس للمعصية الكبيرة حد وتعريف تعرف به فليس لها حد يعرفها العباد به وإلا اقتحم الناس الصغائر واستباحوها ولكن الله سبحانه وتعالى أخفاها عن العباد كى يجتهدوا فى اجتناب المنهيات ويبتعدوا عن الذنوب كلها وفى ذلك لاشك اجتناب للكبائر مثل ما كان من إخفاء الصلاة الوسطى فى الصلوات الخمس على مستوى اليوم والليلة حتى يقوم الناس بها فى أوقاتها المحددة . ومثل ليلة القدر فقد أخفيت وما كان من تحديد لها فهو من اجتهاد العلماء أخذا من الأحاديث الصحيحة الواردة فى هذا الشأن وداروا حولها من أجل بيان موقع الليلة ولكن ظل هذا الأمر بين أخذ ورد بينهم حتى قال بعضهم من يقم الحول يصبها . ومثل ساعة الإجابة فى يوم الجمعة فهى ساعة

مباركة والدعاء فيها مستجاب وقد أخفيت بين ساعات اليوم حتى يجتهد الناس فى العبادة يوم الجمعة كله .

رد كثير من العلماء على هذا الرأى وقالوا إن للمعصية الكبيرة حدا تعرف به وتعريفا يشرح خطرها وأثرها ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال :- قال الإمام الماوردى: «المعصية الكبيرة كل ما أوجب الحد على مرتكبها أو توجه إليه الوعيد الشديد» وقال ابن عطية : «كل ماوجب فيه حد أو ورد فيه توعد بالنار أو وردت فيه لعنة» وقال الإمام الغزالى : كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف ووجدان ندم تهاونا واستجراء عليها فهى كبيرة» .

وأخيرا ... قال الجلال البلقينى : «الكبيرة كل ذنب عظم عظما يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبيرة ويوصف بكونه عظيما على الإطلاق ولها أمارات : منها إيجاب الحد ومنها الايعاد عليه بالعذاب بالنار ونحوها فى الكتاب والسنة ومنها وصف صاحبها بالفسق ومنها اللعن» .

وقد عبر بعضهم عن هذا المعنى فقال : «والتحقيق أن الكبيرة كل ذنب قرن به وعيد أو لعن بنص كتاب أو سنة أو علم أن مفسدته كمفسدة ماقرن به وعيد أوحد أو لعن أو أكثر من مفسدته أو أشعر بتهاون مرتكبه فى دينه إشعار أكثر الكبائر المنصوص عليها بذلك» .

إلى هنا ظهر أن كل ماسبق من بيان معنى المعصية الكبيرة إنما كان على وجه التقريب فكل ماذكره القوم لم يكن الا مجرداجتهاد ولم يكن حدودا مفصلة أو تعاريف جامعة مانعة بحيث تجمع هذا الأمر وحده وتنفى ماعداه . وربما كان السبب فى ذلك أمرين:

الأمر الأول : ما جاء فى كتاب الله تعالى من آيات وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث تبين هذه الذنوب ولكن مختلطا بعضها ببعض ومرتبة عليها غضب الله على مرتكبها وطرده من رحمته فى الدار الآخرة والزجر فى الدنيا بضرب أو قطع أو قتل مع العلم بأن الذى يحدث له فى الدنيا هين إذا قيس بما

ينتظره من العذاب الأليم فى النار يوم القيامة "وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين"(١) .

الأمر الثانى : ورع القوم وخوفهم أن يقحموا أنفسهم فى هذا الأمر الخطير الكبير فى وقت واحد فيضعوا الذنوب الكبائر فى معنى محدود وهى عامة وتحت أنواع وهى كثيرة ويصنفوا الصغائر وهى أكثر من أن تحصى . إنهم بهذا الفعل - لو أرادوا - قد وضعوا أنفسهم أمام غضب الله تعالى .

أنواع من الكبائر

وبعد هذه الجولة مع بيان الكبائر وتعريفها نحب أن نعرض لبيان أنواع منها أخذا من الأحاديث التى وردت بهذا الشأن وسوف نجد أيضا كلاما كثيرا بين الصحابة والتابعين ومن أخذ عنهم من العلماء والفقهاء حول عدد الكبائر وأنواعها فقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : هن أربع . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : هن تسع . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وينسب إليه أنه قال مرة : كل مانهى الله عنه فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكى : «الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار . أربعة منها فى القلب : الشرك والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله تعالى . وأربعة فى اللسان : شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر . وثلاثة فى البطن شرب الخمر وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا . واثنتان فى الفرج : الزنا واللواطة واثنتان فى اليدين : القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين : الفرار من الزحف . وواحدة فى جميع البدن : وهى عقوق الوالدين» قال بعض العلماء تعقيبا على هذا العدد : «وهذا يمكن أن يزاد عليه وينقص منه فإن ضرب اليتيم وتعذيبه أكبر من أكل ماله والله أعلم» .

---

(١) سورة الزخرف (٧٦) .

ونذكر الآن هذه المجموعة من الأحاديث الصحيحة التى رويت فى بيان المعصية الكبيرة وعددها حتى ينزجر الناس ويبتعدوا عن عصيانهم لله عز وجل ويعلموا أنهم باقتراف شئ منها إنما يحادون الله وبذلك يتعرضون لنقمته وعقابه :

الحديث الأول : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال اجتنبوا السبع الموبقات : قالوا يارسول الله : وماهن؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» رواه الشيخان .

الحديث الثانى : عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه انه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك» قلت : ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم منك» قلت : ثم أى؟ قال: وأن تزانى حليلة جارك» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم "والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون" أخرجه الشيخان .

الحديث الثالث : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الكبائر : "الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس" رواه البخارى . واليمين الغموس التى يحلفها الرجل كاذبا عامدا وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى الإثم .

الحديث الرابع : عن أبى بكرة نفيع بن الحارث رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ - ثلاثا - قلنا : بلى يارسول الله ، قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين" وكان متكئا فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . متفق عليه .

الحديث الخامس : عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من الكبائر شتم الرجل والديه» قالوا: يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم! يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه» متفق عليه .

هذا كلام الصحابة عن عدد الكبائر والعلماء من بعدهم فقد ظهر أنه بين أخذ ورد نتيجة لورودها متفرقة فى الأحاديث كما اتضح ذلك من قبل عند الكلام على معنى الكبيرة . وسبب ذلك عدم اجتماعها فى حديث واحد أو آية كريمة . وعلى كل حال فإن الواجب على كل إنسان أن يتورع عن أى شبهة تجر عليه الوقوع فى فعل نهت عنه آية من كتاب الله أو حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام: دع مايريبك إلى مالا يريبك» ونسوق الآن مجموعة من الذنوب الكبائر على سبيل المثال لا الحصر - وهى الشرك بالله . والسحر . وأكل الربا . وأكل مال اليتيم . وقتل النفس بغير حق . والفرار من جهاد العدو . وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات . والزنا . وشرب الخمر . والسرقة .وعقوق الوالدين . وشهادة الزور . واليمين الغموس «الكاذبة» والكذب ، والحسد، والغيبة، والنميمة، ولعن المسلم، ومقاطعة الجاروإيذاؤه . وهجر المسلم فوق ثلاث من غير سبب شرعى واليأس من رحمة الله . والأمن من مكر الله . والحلف بغير الله . والحكم بغير ما أنزل الله . وإفطار يوم من رمضان بغير عذر شرعى . وترك الصلاة والزكاة . وعدم إسباغ الوضوء . وعدم إتقان الغسل . وترك الجهاد إذا نزل العدو أرض المسلمين . وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وكتمان الشهادة . وأكل أموال الناس بالباطل . وأكل الميتة ولحم الخنزير والدم المسفوح . وماتفعله النساء من النياحة وشق الجيوب ولطم الخدود . والتنميص (نتف شعر الوجه وترقيق الحواجب) . والوشم والتفليج للأسنان . ووصل الشعر . ونقض العهد . والركون الى الظلمة وموالاة الكفار . واتهام الأبرياء بالإثم . وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال . وتحليل المطلقة ثلاثا (وهو التيس المستعار) وغير ذلك مما نبهت عليه آيات الكتاب العزيز وسنة النبى الأمين صلى الله عليه وسلم .

أمارات وعلامات

وبعد .. ! فإننا بعد هذا العرض نستطيع أن نتعرف على المعصية بمجموعة من

المعالم والقرائن تدل عليها وتشير اليها ومع شئ من التأمل فى الفعل يستطيع كل ذى عقل أن يعرفه: أحلال هذا أم حرام ؟ مع ملاحظة أن كل ما سنذكره تحدثت عنه الآيات والأحاديث . ونبدأ - وبالله التوفيق - فى بيان هذه المجموع من العلامات والدلائل فنقول :

تستطيع أن تتعرف على المعصية بأنها : هى كل ذنب لعن الله فاعله أو لايرضى عنه أو نفى محبته عن مرتكبه أو شبهه بالشياطين أو قرنه بالبهائم .

وهى كل ذنب وصفه الله بأنه سوء وباطل أو نبه على الكراهة فيه أو استعاذ منه المرسلون وأبغضوه ونفروا من ارتكابه وكان سببا مانعا لصاحبه من الهداية .

وهى كل ذنب كان سببا لعذاب عاجل فى الدنيا أو آجل فى الآخرة أو استحق مرتكبه لوما وتأنيبا أو ذما وتقريعا واستحق بذلك أن يكون مع الخاسرين .

وهى كل ذنب وصفته آية كريمة أو حديث شريف بإنه إثم وشر أو خبث أو نجس أو لعن أو رجس أو سبيل الى غضب الله وسخطه أو جالب لصاحبه نقمة أو مزيل عنه نعمة .

وهى كل ذنب ذمه الشارع الحكيم ومقته وأوجب تركه وذم فاعله أو عتب عليه فكان هذا الفعل - والحالة هذه - جالبا لغضب الله عليه .

وهى كل ذنب أوجب حدا من الحدود لصاحبه وخزيا له فكان بهذا الفعل معرضا لمحاربة الله وعداوته .

وهى كل ذنب نسب صاحبه إلى عمل الشيطان وغروره أو وسوسته وتزيينه أو سلكه فى أتباعه الذين سلكوا طريقه .

وهى كل ذنب أطلق على فاعله صفة الذم لأنه فعل إثما أو بغيا أو عدوانا أو ظلما أى اعتدى على الناس أو بغى عليهم أو ظلمهم فترتب عليه الحرمان من الجنة ونعيمها وخاب سعيه فى الآخرة .

وهى كل ذنب كان سببا فى أن الله سبحانه وتعالى لايكلم صاحبه يوم القيامة ولا ينظر إليه ولايزكيه ولايصلح عمله ولا يهديه إلى الخير والرشاد .

وهى كل ذنب وصف مرتكبه بأنه ليس من الله فى شئ أو ليس من الرسول

وأصحابه وجماعة المسلمين أو أنه كان سببا فى ايقاع العداوة والبغضاء بينهم .

وأخيرا ... ! هى كل ذنب أعلن مرتكبه بحرب من الله ورسوله أو بأنه عدو الله أو قيل فى شأنه : لايكون هذا أولا ينبغى هذا أو تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة حين ظهر كل مخبوء واتضح كل مستور أو لعن بعضهم بعضا أو دعا بعضهم على بعض .

وهذه أمور يجب معرفتها

وينبغى أن يكون معلوما أن هناك من الأمور الخطيرة والمخالفات الصارخة مايجعل المعصية الصغيرة معصية كبيرة فتعظم المعصية وتستفحل وتجلب سخط الله على صاحبها ومقته ويسلك بها فى عداد الأشقياء التعساء المذنبين . قال الإمام النووى فى شرحه على صحيح الإمام مسلم : قال العلماء : والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة وروى عن عمر وابن عباس وغيرهما رضى الله عنهم : لا كبيرة مع استغفار ولاصغيرة مع إصرار» ومعنى هذا الكلام : أن الكبيرة تمحى بالاستغفار والصغيرة تصير كبيرة بالإصرار على فعلها . قال الشيخ أبو محمد بن عبد السلام فى معنى الإصرار : هو أن تتكرر منه الصغيرة تكرارا يشعر بقلة مبالاته بدينه إشعار ارتكاب الكبيرة بذلك» قال : وكذلك اذا اجتمعت صغائر مختلفة الأنواع» .

وقد ذكر الامام الغزالى رضى الله عنه فى كتابه «إحياء علوم الدين» مجموعة من هذه الأمور التى تقلب المعصية الصغيرة معصية كبيرة نلخصها فيما يلى :

أولا : أن يكون مرتكب المعصية الصغيرة من العلماء الذين يقتدى بهم الناس لأنهم ينظرون إليه ويفعلون مثل مايفعل ظنا منهم أنه لايفعل إلا خيرا .

فإذا رأى الناس عالمهم يقتحم ساحة المشتبهات أو اطلعوا على دخائله فوجدوه لايتورع عن الشبهات أو نظروا إليه فوجدوه يجالس الحكام الظلمة ويصادقهم وهم الذين ينهبون حقوق الشعوب دون أن ينكر عليهم ويقبل عطاياهم وهباتهم أو سمعوا عنه أنه يزين لهم أعمال السوء أو رأوه معجبا بعلمه مرائيا قاصدا حب الجاه والسمعة فإن هذه الآثام سوف تكبر فى حقه وستكون شرا عليه . وقد روى جرير بن

عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شئ ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شئ . رواه مسلم .

هكذا يبين الرسول الأمين ويقول : فله أجرها وأجر من عمل بها ... كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ... فالحسنات تتضاعف للعلماء إذا اتبعوا على الخير ... والأوزار كذلك إذا اتبعوا على الذنوب . إذن : فالواجب على العلماء أن يتركوا الذنوب أو يخفوها قدر الإمكان إذا ارتكبوا شيئا منها وعليهم أن يبتعدوا عن الشبهات وأن يقللوا من الشهوات واللذائذ ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . لأن العامة لهم الظاهر من الأشياء .

ثانيا : أن يتمدح مرتكب الصغيرة بفعلها ويسر بأنه فعل كذا ويفرح ويتبجح بالتهجم عليها ويعد ذلك علامة الذكاء وعلوا الهمة وسبب الارتقاء فى نظر الناس دون أن يعرف أنه قد غرق فى المحظور وبذلك يسود قلبه فلا ينتفع بنصح لأنه كلما صغرت المعصية الصغيرة عنده كبرت عند الله تعالى وعلى العكس من ذلك نجد المؤمن الصادق فليس من طبيعته ولا من شأنه أن يفرح بمعصية فقد روى الإمام أحمد والنسائى بسند صحيح عن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن أرأيت هذا البيان النبوى!! .. إن المؤمن يستبشر بالحسنة ويسر بها ويرى السيئة مصيبة ويغتم بها ولذلك فهو أسرع إلى التوبة من غيره .

ثالثا : أن يتحدث مرتكب الصغيرة بها بعد فعلها فيظهرها على الناس بعد ستر أو يفعلها على مسمع ومرأى منهم ولايخفى مافى ذلك القبح من هتك لستر الله عليه وإذاعة للشر وتحريك لعوامل العصيان بينهم واستهانة بالمنكر وأثره فى المجتمع وقد ورد فى الصحيحين : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : كل أمتى معافى الا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل

العمل بالليل ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يافلان عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره الله عليه ويصبح يكشف ستر الله عنه .

رابعا : أن يستصغر مرتكب المعصية الصغيرة فعلها ولايقدر خطرها على درجة إيمانه فى قلبه فكلما استصغرها كبرت عند الله وعلى العكس من ذلك كلما استعظمها صغرت عند الله لأنه فى هذه الحالة يكون قد اقترب من شاطئ النجاة وهو التوبة منها وقد دفعه إلى هذا الاستعظام خوفه من أثر المعصية على إيمانه . جاء فى الصحيحين : عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه وأن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا .

إن المؤمن يرى الذنوب مضيعة له ومهلكة لعمله ومن ثم يتحاشى المعصية ويتلاشى أسبابها ودواعيها ويعلم أن الله مطلع عليه ورقيب فيقلع عن كل مايقربه منها لعلمه بجلال الله تعالى وعظمته . روى عن أنس رضى الله عنه قال : إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات . رواه البخارى .

وقال : الموبقات : المهلكات .

خامسا : أن يتهاون مرتكب المعصية الصغيرة بفعلها ولايدرك حلم الله ولايعرف ستره عليه وإمهاله إياه وهذا ماحذرت منه السنة المطهرة . روى النسائى وابن ماجة عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ياعائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبا . وروى عن سعد بن جنادة رضى الله عنه قال : لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين نزلنا قفرا من الأرض ليس فيها شئ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اجمعوا من وجد شيئا فليأت به ومن وجد عظما أو سنا فليأت به فما كان كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاما ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتق الله رجل فلا يذنب صغيرة ولا كبيرة فإنها

محصاة عليه . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم وإن محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه .

سادسا : هذا الداء العياء وبلية البلايا وهو الإصرار على المعصية الصغيرة والاستمرار على فعلها فإن المرء اذا وصل إلى هذه الدرجة فلن ينتفع بإرشاد ولن يفيده نصح فقد اسود قلبه وطبع عليه وتمكن الشيطان منه والقلب فى هذه الحالة صار ميتا وسوف يأخذ مدة طويلة حتى يعود إلى حالته الأولى من النقاء واليقظة روى الترمذى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكته سوداء فإن هو نزع واستغفر صقلت فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذى ذكره الله تعالى «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» .

إن الواجب على الإنسان ألا يستهين بالمعصية بل يقلع عنها بإحداث توبة سريعة حتى يصقل قلبه فإن من شيم المؤمنين المتقين أنهم يسارعون بالتوبة كما قال الله تعالى فيهم : ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أخرج أبو داود والترمذى والبزار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أصر من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة .

عــلاج ودواء

وقد وصلنا إلى هذا الحد من الحديث عن المعصية وأبعادها وخطرها فهل من سبيل إلى الخروج من هذه الورطة إذا وقع فيها الإنسان فكل بنى آدم خطاء ولن يسلم منها أحد فإن العصمة من الخطأ لم تكن إلا للأنبياء ؟ هل من علاج للقلب إذا تراكمت عليه ظلمات المعاصى وكدرها حتى يعود صافيا نقيا ؟

والجواب : نعم !! هناك أكثر من سبيل وطريق وأكثر من علاج ودواء وسيكون فى التوجيه الإلهى والهدى النبوى :

من هذه الأمور : استشعار الانسان عظمة الله واطلاعه عليه وعندئذ سيخشاه ويتقيه ويخاف منه فيقلع عن عصيانه . ولقد كان الخوف من الله والابتعاد عن كل مايغضبه سبحانه وتعالى والتورع عن الأمور التى تقرب من دائرة المحظور دأب الأنبياء والمرسلين والعلماء العاملين قال تعالى : "وإياى فارهبون" (١) وقال تعالى : "يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم" (٢) وقال عز شأنه : "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه" (٣) وقال تعالى : "إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلاتخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين" (٤) وقال تعالى : "إنما يخشى الله من عباده العلماء" (٥) وقال تعالى : "ولمن خاف مقام ربه جنتان" (٦) وقال تعالى : "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم" (٧) .

فإذا استشعر الانسان عظمة ربه واطلاعه عليه وأنه محاسب على كل فعل يفعله فسوف يجد من دلائل اليقين ماينمى الايمان فى قلبه ويزيده ويكسبه ورعا يحجزه عن كل مايغضب الله وقد حفلت كتب السنة بما يرشد الانسان الى الطريق المستقيم ويخوفه عقبى المعصية . عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى الا ماقدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ماقدم وينظر بين يديه فلايرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة . رواه الشيخان . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يومئذ تحدث أخبارها" ثم قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول : عملت كذا وكذا فى يوم كذا وكذا فهذه أخبارها . رواه الترمذى . وكان الخوف من الخطيئة والندم

(١) سرة البقرة : ٤٠ . (٣) سورة البينة : ٨ . (٥) سورة النور : ٦٣ . (٧) سورة النور : ٧ .
(٢) سورة الحج ١ . (٤) سورة آل عمران : ٢١ . (٦) سورة الرحمن : ٤٦ .

على فعلها والبكاء من الوقوع فى ظلمتها علامة الأوبة الصادقة والرجوع إلى الله تعالى : كان الامام على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهما إذا توضأ وفرغ من وضوئه أخذته رعدة !! فقيل له فى ذلك . فقال : ويحكم أتدرون إلى من أقوم ولمن أريد أن أناجى ؟ وقال الامام أحمد بن حنبل : الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فما اشتهيه . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يارسول الله (الذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) يارسول الله هو الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله ؟ قال : لا يابنت أبى بكر يابنت الصديق ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق ويخاف الا تقبل منه . رواه أحمد .

والذى لاشك فيه أن الذى يدفع إلى هذا الخوف هو العلم بأن الله مطلع على عباده علما أكيدا ومعرفة صادقة . أخرج ابن أبى الدنيا انه صلى الله عليه وسلم قال : "إذا اقشعر جسد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها" وقال صلى الله عليه وسلم : "عينان لا تمسهما النار يوم القيامة : عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله" . رواه الترمذى عن ابن عباس وقال حديث حسن . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه" رواه الشيخان . وروى ابن المبارك عن الحسن والبزار والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى : "لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين إذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة وإذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة" .

وهذه وصية من بيت النبوة ومنها يتضح أن التجافى عن الإثارة والابتعاد عن قرناء السوء خير معوان على لزوم طريق الاستقامة . عن سفيان الثورى قال :

دخلت على جعفر الصادق فقلت له : يا ابن رسول الله أوصنى قال : "ياسفيان : لامروءة لكذوب ولا راحة لحسود ولا إخاء لملول ولا سؤدد لسيئ الخلق" قلت : يا ابن رسول الله زدنى قال : ياسفيان كف عن محارم الله تكن عابدا وارض بما قسم الله لك تكن مسلما واصحب الناس بما تحب أن يصحبوك به تكن مؤمنا ولاتصحب الفاجر فيعلمك من فجوره وشاور فى أمرك الذين يخشون الله قلت : يا ابن رسول الله زدنى . قال : ياسفيان من أراد عزا بلاعشيرة وهيبة بلا سلطان فليخرج من ذل معصية الله إلى طاعة الله . قلت : يا ابن رسول الله زدنى . قال : أدبنى أبى بثلاث : قال لى : أى بنى !! إن من يصحب صاحب السوء لايسلم ومن يدخل مدخل السوء يتهم ومن لم يملك لسانه يندم" وقال ابن المبارك : سألت وهيب بن الورد أيجد طعم العبادة من يعصى الله تعالى ؟ قال : لاولا من يهم بمعصية الله تعالى" .

ومنها التوبة النصوح الصادقة الخالصة التى ينخلع بها المذنب مما وقع فيه من عصيان الله سبحانه وتعالى وكانت التوبة - وما زالت - بشروطها المطلوبة التى بينها العلماء خير معوان للمرء أن يعود بها إلى صفاء نفسه ونقاء روحه وبذلك يعود إلى ساحة الرضوان وهذا ما صرحت به آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : "ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار"(١) وقال تعالى:"ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم"(٢) وقال تعالى : "وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون"(٣) وقال عز شأنه : "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما" (٤) .

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يحث على التوبة ويأمر بها ويواظب عليها

---

(١) سورة التحريم : ٨ .

(٢) سورة الأنعام : ٥٤ .

(٣) سورة الشورى : ٢٥ .

(٤) سورة النساء : ١٧ .

وهو الذى غفر له ربه ماتقدم من ذنبه وماتأخر فقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : والله انى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة" . وروى مسلم عن الأغر بن يسار المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة" .

ومن إكرام الله لعباده أن فتح لهم باب الرحمة على مصراعيه من أجل هذه التوبة رحمة بهم وعطفا عن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" رواه مسلم . وروى الترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر" . والله سبحانه وتعالى يفرح بتوبة عبده ورجوعه إلى مرضاته فقد روى الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة" وفى رواية لمسلم "لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح" .

ولكن كيف نتوب ؟؟ والجواب يتلخص فى كلمات قصار : فالندم الشديد بالقلب على الوقوع فى المعصية وإن الخروج منها وتركها وعدم الإصرار وإن العزم الأكيد على عدم العودة إليها وطلب المغفرة من الله تعالى كل ذلك يخرج الانسان من هذه الظلمة ويقيله من هذه العثرة وبقيت كلمة أخيرة إتماما لهذا الجواب : فإن المعصية إذا كانت فى حق الانسان كان على المذنب - إضافة لما سبق - أن يرد المظالم إلى أصحابها وأن يستحلهم منها ويطلب منهم العفو عنها ثم يفعل حسنة فى مقابل كل

سيئة فعلها لأن الجزاء من جنس العمل وعليه أن يبادر بذلك كله خوفا من ضياع العمر ومجئ الأجل .

ومنها ماينزل بالانسان من فتن ومحن وأوجاع وأسقام وهموم وأحزان : هذه الأمور وغيرها مما يصيب الانسان فى الدنيا يكشف ظلمة المعاصى ويكسب قلبه صفاء ونقاء ويعطيه من ثواب الله ورضاه مايطمئن فؤاده ويشفيه من أوجاعه إن هو تقبل كل ذلك بقبول حسن فقد ورد فى الصحيحين عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : مايصيب المسلم من نصب ولا وصب ولاهم ولا حزن ولاأذى ولاغم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه" رواه الشيخان . وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أراد الله بعبده الخير عجل الله له العقوبة فى الدنيا وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة" وقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط" رواه الترمذى .

ومنها اعمال العبادة من طهارة ووضوء وصلاة وزكاة وغيرها من كل مايقرب الانسان من ربه : هذه الطهارة سبيل الى رضوان الله عز وجل لأنها أساس العبادة ونظافة البدن والثوب فقد قال الله عز شأنه :" لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون ان يتطهروا والله يحب المطهرين"(١) وقال تعالى : "إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين"(٢) وقال تعالى : "وثيابك فطهر" (٣) وقد ورد فى السنة مايدل على أن ايذاء الناس بتلويث بيئتهم بإلقاء القاذورات فى الشوارع وممرات المياه سبب جالب للعنة مرتكبه . لعنة الله والناس لأنه بذلك فعل إثما عظيما . روى مسلم وأبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اتقوا اللاعنين قالوا : وما اللاعنان يارسول الله ؟ قال : الذى يتخلى فى طريق الناس أو فى ظلهم" إن من يتسبب فى دعاء الناس عليه

(١) سورة التوبة : ١٠٨ . (٢) سورة البقرة : ٢٢٢. (٣) سورة المدثر .

بفعل أثيم - كهذا الفعل الشاذ - لابد أن يطرد من رحمة الله وهذا مابينه الحديث . عن حذيفة بن أسيد رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من آذى المسلمين فى طرقهم وجبت عليه لعنتهم" رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن .

وهذا الوضوء أيضا - جالب لمغفرة الله ورحمته وثوابه ورضاه . عن عبد الله الصنابجى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا توضأ العبد فمضمض خرجت الخطايا من فيه فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج تحت أظفار يديه فإذا مسح رأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة" رواه مالك والنسائى .

هذه أفعال الوضوء أزال الله بها سيئات المتوضئ وضاعف بها حسناته وجعل له مشيه إلى المسجد والصلاة زيادة له فى الفضل والثواب والرحمة والرضوان .

وهذه الصلاة لها دور كبير فى غسل النفس من أدرانها وتطهيرها من ذنوبها فكانت مثل النهر الجارى يغتسل الانسان فيه كل يوم خمس مرات ينقى بعدها الجسم تماما كما روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شئ ؟ قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحوا الله بها الخطايا" وفى رواية لمسلم والترمذى عن أبى هريرة -أيضا - أن رسول الله قال الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن مالم تغش الكبائر" وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ألا أدلكم على مايمحوا الله به الخطايا ويرفع به الدرجات قالوا : بلى يارسول الله قال : اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط". رواه مسلم والترمذى .

ومنها ماروى مسلم فى صحيحه مطولا ورواه ابن خزيمة مختصرا فى قصة اسلام

عمرو بن العاص . عن ابن شماسة المهدى رضى الله عنه قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت فبكى طويلا وقال : فلما جعل الله الاسلام فى قلبى أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله أبسط يمينك لأبايعك فبسط يده فقبضت يدى فقال: مالك ياعمرو؟ قال:أردت أن اشترط، قال: تشترط ماذا؟ قال أن يغفر لى قال : أما علمت ياعمرو أن الاسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله» ثلاثة أعمال عظيمة إشتمل عليها هذا الحديث ومنه يتضح فضلها فى هدم الذنوب والاتيان عليها من القواعد ويخرج الانسان بها من ظلمة هذه الذنوب .

الأول : هذا الاسلام الحنيف فإنه يقطع ما كان قبله كما قال عز شأنه : "وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وقال تعالى : "قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين وهذا - من غير شك - إعلان من الله للملاحدة والمشركين والكفرة والمستبدين والطغاة والظالمين : إن انتهوا عما هم فيه من العناد والمشاقة والكفر ثم يدخلوا فى الاسلام والطاعة لله يغفر لهم ماقد مضى منهم فى أيام العصيان من الخطايا والذنوب . جاء فى الصحيح من حديث أبى وائل عن ابن مسعود أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما فعل فى الجاهلية ومن أساء فى الاسلام أخذ بالأول والآخر» وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تجئ الأعمال يوم القيامة فتجئ الصلاة فتقول : يارب أنا الصلاة فيقول : إنك على خير وتجئ الصدقة فتقول : يارب أنا الصدقة فيقول : إنك على خير ثم يجئ الصيام فيقول : يارب أنا الصيام فيقول : إنك على خير ثم تجئ الأعمال كل ذلك يقول الله تعالى : إنك على خير ثم يجئ الاسلام فيقول : يارب أنت السلام وأنا الاسلام فيقول : إنك على خير بك اليوم آخذ وبك أعطى قال الله فى كتابه : "ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين" مسند الامام احمد .

الثانى : هذه الفريضة العظيمة وركن الاسلام الخامس القوى . هذا الحج المبرور الذى جعله الله تعالى تكفيرا للذنوب وتطهيرا من أدران المعاصى وغسلا من أوزار الدنيا وظلامها وبه تعود النفس الى صفائها وضيائها ويقينها كما قال تعالى : "الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافسوق ولاجدال فى الحج وماتفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب"(١) وقد وضح هذا الفضل الكبير لهذه الفريضة السامية ماروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» ورويا عنه - أيضا - رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» .

الثالث: الهجرة من دار الكفر والشرك حيث لا يأمن الانسان فيها على دينه . إن الخروج من دار الفسق والطغيان التى تقتل فيها كلمة المعروف ويشرئب المنكر بعنقه ويتطاول بسلطانه ويدل بجبروته ويجاهر بغروره وفجوره : إن الهجرة من هذا كله إلى مكان يستطيع أن يعيش فيه الأنسان آمنا على دينه وعقيدته وحريته وكرامته سبيل الى مرضاة الله ويعد عن بؤرة الشر والأشرار وأماكن الظلمة والفسقة والطغاة والمتكبرين . قال الله تعالى : "ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما" (١) قال الامام أحمد : «عن عبد الله بن عتيك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من خرج من بيته مهاجرا فى سبيل الله - ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاث : الوسطى والسبابة والإبهام فجمعهن وقال : وأين المجاهدون ؟ - فخرعن دابته وقال فمات فقد وقع أجره على الله أو لدغته دابة فمات فقد وقع أجره على الله أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله - والله إنها لكلمة ماسمعتها (من أحد من) العرب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم - ومن قتل قعصا فقد استوجب المآب»

---

(١) سورة النساء (١٠٠) .

ابن كثير . وعن أبى سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى رضى الله عنه أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا انصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم - أى حكما - فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة» رواه الشيخان . وفى رواية فى الصحيح «فكان إلى القرية الصالحة بشبر فجعل من أهلها » وفى رواية فى الصحيح «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال قيسوا مابينهما فوجدوه أقرب إلى هذه بشبر فغفر له» .

ومنها البر بالوالدين والإحسان إليهما فإن إكرامهما عمل جليل يمحو عن الانسان ما اقترف من سيئات وآثام . عن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «إنى اشتهى الجهاد ولا أقدر عليه قال : هل بقى من والديك أحد ؟ قال : أمى قال : قابل الله فى برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد» رواه الطبرانى . وروى ابن ماجة والترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رجلا أتاه فقال : إن لى امرأة وإن أمى تأمرنى بطلاقها فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «الوالد أوسط أبواب الجنة فإن شئت فأضع هذا الباب أو احفظه» وروى ابن ماجة والنسائى عن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى

---

(١) سورة النساء : ١٠٠ .

النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أردت أن أغزوا وقد جئت استشيرك فقال : هل لك من أم ؟ قال : نعم قال : فالزمها فإن الجنة عند رجلها » .

ورواه الطبراني باسناد جيد قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم استشيره فى الجهاد فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ألك والدان ؟ قلت : نعم قال : إلزمهما فإن الجنة تحت أرجلهما » .

ومنها الشهادة فى سبيل الله : فإن الشهادة تكفر الذنوب وتمحو الخطايا والآثام فيغفر للشهيد فى معارك المشركين والكافرين جهادا عن العقيدة والعرض والشرف وقد جاءت آيات الكتاب العزيز وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم بما يفيد مغفرة الذنوب للشهداء بمجرد الشهادة . عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وإن له ما على الأرض من شئ إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة عند الله» وفى رواية : لما يرى من فضل الشهادة» رواه الشيخان والترمذى . وروى مسلم عن عبد الله بن عرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين» وروى أيضا عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فيهم فذكر أن الجهاد فى سبيل الله والايمان بالله أفضل الأعمال فقام رجل فقال : يارسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر ثم قال رسول الله : كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله اتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل قال لى ذلك» رواه مسلم وغيره .

إلى غير ذلك مما وردت به السنة وحثت عليه من أعمال الخير والبر التى تمحو الذنوب وتكفر الخطايا والآثام .

الفصل
الثانى

رحمة الله سبقت غضبه

ابتعد عن المعاصى ..

نعمة تستوجب الشكر ..

الابتلاء من أسباب الهداية ..

رفع العذاب رحمة بالعباد ..

ولا يظلم ربك أحدا ..

ابتعد عن المعاصى

والواجب على الإنسان أن يبتعد عن كل مايغضب الله سبحانه وتعالى وذلك بالاقبال على أوامره والابتعاد عن نواهيه ، باتباع طريق المؤمنين الصادقين .

إن هذا لهو طريق النجاة من المهالك والفوز برضوان الله فى يوم تضل فيه الأفهام وتطيش فيه الأحلام وذلك مصداق قول ربنا عز شأنه " ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا"[1].

بينت الآية الكريمة أن من سلك طريقا أخرى غير ما جاء به الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام ويأخذ بغير سبيل المؤمنين العاملين وخالف ماهم عليه من وحدة جامعة واتفاق على العمل بشرع الله واقتداء برسول الله فإن الله سيجزيه على ذلك جزاء لايعلم مداه إلا الله بأن يمد له فى أسباب الراحة والطمأنينة استدراجا له حتى يأخذ على غرة ويدخله جهنم مصداقا لقوله تعالى : "فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين"[2] ولقوله تعالى : "ونذرهم فى طغيانهم يعمهون" [3] ولقوله عز شأنه : "فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين"[4] .

إن هذا الذى نطقت به الآيات السابقة هو سنة الله فى خلقه جرت وتجرى على كل عبد من العباد حتى صار حكما عاما مطلقا لامحيص عنه ولاتخلف له فى عقاب من يعصى ربه . قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم : نبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضى على الكتب التى كانت قبله فأنزل الله : "ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به" ، "ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ

---

(١) سورة النساء : ١١٥ . (٢) سورة القلم : (٤٥ : ٤٦)

(٣) سورة الأنعام : ١١٠ . (٤) سورة الصف : (٥)

الله ابراهيم خليلا [1] "فأفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان" الطبرى ، وأفلج الله حجتهم نصرها وأعلاها .

وضح من هذه الآية وغيرها من آيات القرآن أن الدين ليس بالتمنى ولا بالتحلى فليس كل من ادعى شيئا حصل عليه بل العبرة بطاعة الله واتباع ماشرعه على ألسنة الرسل الكرام كما قال تعالى : "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" ومن أجل ذلك كان على المرء أن يتجنب كل ذنب قليله وكثيره وأن يبتعد عن كل إثم ظاهرا وباطنا صغيرا وكبيرا كما قال الله تعالى : "وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون" [2].

إن كل ذنب يراه الله عز شأنه ويجازى عليه فالحذر من أن يطلع الله على شئ يراك فيه وليكن لك من نفسك رقيب . عن النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإثم فقال : الإثم ماحاك فى صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه" رواه مسلم وأحمد .

وإذا كان الله عز وجل سيجازى كل إنسان على عمله ظاهره وخفيه مستوره وجليه فقد وجب على الناس أن يبتعدوا عن كل مايقربهم من الذنب وأسبابه وذلك بعدم الاقتراب من هذه الأسباب ومايوصل اليها من قريب ومن بعيد وفى ذلك يقول ربنا تعالى : "ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن"[3] جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن» ورواه مسلم فى كتاب اللعان قال سعد بن عبادة : ولو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير من سعد والله أغير منى ، من أجل ذلك حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن» - وغير مصفح : بفتح الفاء وكسرها وعلى كل : أضربه بحد السيف .

---

(١) سـورة : النسـاء : ١٢٥ . (٢) سـورة الأنعـام : ١٢٠ .

(٣) سـورة الأنعـام : ١٥١ .

فليعلم الناس خطورة الأمر وليتنبهوا وليدركوا أن الله حرم كل معصية ورد كل ذنب ومنع كل فاحشة وذلك ماأكدته آيات القرآن الكريم واحاديث النبى عليه الصلاة والسلام فقد قال تعالى : " قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالاتعلمون" (١) . جاء فى الصحيحين : عن ابن مسعود ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا أحد أغير من الله فلذا حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل» وروى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يغار وغيرة الله أن يأتى المؤمن ماحرم الله عليه»

وسنذكر فيما يلى مجموعة من الآيات القرآنية يظهر منها أن أثر الذنوب ينتقل مثل عدوى المرض تنتقل من المريض إلى السليم حتى يعلم أفراد كثيرين يعانى منهم المجتمع ويلات وويلات إذ أن أثر الذنب لايقف عند الفرد وإنما يتعداه إلى الجماعة مما يعرض الأمة لفوضى الفساد والظلم والاستغلال والشرور والأمة - والحالة هذه - إذا رضيت عن هذا الوضع وفعلت المعاصى وغفلت عنه فلابد من عقوبتها والأخذ على أيديها حسما للشر ونزعا للفساد وقضاء على فساد المذنبين وحمق العاصين تطهيرا للأرض من عصيانهم ، وصونا للمجتمع من رجسهم واقرأ فى هذا قول ربنا عز شأنه : "أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون"(٢)

إن هذا لهو التحذير والتخويف من مخالفة أمر الله والهجوم على مانهى عنه فى لحظة من ليل أو نهار فقد قال تعالى : "أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أوتأتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون"(٣) فلا أمان مع المعصية ولا استقرار لمجتمع الفحشاء والذنوب . فوجب أن يتنبه الأفراد والجماعات إلى خطورة الأمر وسوء المصير الذى ينتظرهم بسبب عصيانهم لله ، قال الحسن البصرى رحمه الله : المؤمن

---

(١) سورة الأعراف : ٣٣ . (٢) سورة الأعراف : ٩٩ . (٣) سورة يوسف : ١٠٧

يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن" لذا كثر التخويف والتحذير من غضب الله أن يأخذهم أو يخسف الأرض بهم فى أى حال يكونون عليه "أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فماهم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم"(١) .

فنحن الآن أمام وعيد لايمكن أن يتخلف كما ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد» وقال تعالى : "وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير"(٢) .

وعلى الرغم من أن الله يأخذ المذنبين بمعصيتهم له لكنه يلطف بهم ويرحمهم فيمد لهم أسباب المتاب علهم يجدون ملجأ إلى الله أن يرحمهم ويعفو عنهم ومن أجل ذلك لم يعاجلهم بشدة الأخذ انتقاما وتشفيا واستعجالا للعقوبة ولعل ذلك هو ما أشارت إليه الآية الكريمة فى قول ربنا سبحانه وتعالى : "ولو أخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا"(٣) رحمة منه - سبحانه - أنه لم يأخذ الناس بجميع معاصيهم ولو أخذهم بسببها عاجلا لأهلك من على الأرض ومعهم مايملكون من دواب وأنعام . قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان الثورى عن أبى اسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : كاد الجعل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ "ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة . ."

وإذا كان ذلك من رحمة الله بالعصاة أنه لايعاجلهم بالعقوبة وبشدة الأخذ فإن النفوس المريضة الضعيفة تتأبى على الهداية وتستمرئ حياة التعاسة والشقاوة

---

(١) سورة النحل : ٧٤ . (٢) سورة الحج : ٤٨ . (٣) سورة فاطر : ٤٥ .

وتلج فى غيها وطغيانها وعنادها فحق عليهم قول ربنا سبحانه وتعالى : "فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين" (١) وأشد من هؤلاء جرما وعنادا وسفاهة رأى من يلجأون إلى الله فى وقت الشدة فإذا كشف عنهم مانزل بهم من عذاب وشدة كرب عادوا إلى ما كانوا عليه من مكر وكيد وجحود ونكران كما قال عز شأنه : "فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون"(٢)

وهل ذلك نعمة من الله تقابل بالشكر ؟

ومن رحمة الله بالعصاة أنه يحذرهم من المعصية لأن من يعصى الله لابد أن يجد عقاب الله وسخطه وعذابه وغضبه فى يوم لاينفع الانسان فيه إلاماقدمت يداه فى الدنيا ... ولاشك أن فى ذلك نعمة من الله ورحمة تستوجب من العبد أن يقابلها بالشكر على هذا الفضل الالهى ، إذ لم يأخذهم من غير إنذار ولم يعاجلهم قبل تنبيه . قال تعالى : "وأنه أهلك عادا الأولى وثمودا فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى . فغشاها ماغشى . فبأى آلاء ربك تتمارى"(٣) فلقد كانت تلك المصارع إذن آلاء لله وأفضالا ألم يهلك الشر ؟ ألم يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعى ؟ أليست هذه كلها آلاء ؟ فبأى آلاء ربك تتمارى .. الخطاب لكل أحد ولكل قلب ولكل من يتدبر صنع الله فيرى النعمة حتى فى البلوى" فى ظلال القرآن .

وقال الفخر الرازى : والعموم هو الصحيح ، كأنه يقول : بأى آلاء ربك تتمارى أيها الانسان كما قال : "ياأيها الانسان ماغرك بربك الكريم ....وكان الانسان أكثر شئ جدلا ... لما عد من قبل النعم وهو الخلق من النطفة ونفخ الروح الشريفة فيه والاغناء والاقناء وذكر أن الكافر بنعمه أهلك قال : فبأى آلاء ربك تتمارى فيصيبك الذى أصابهم وذلك بحفظه إياك فبأى آلاء ربك تتمارى" ، "... تسمية بعض الأمور المعدودة نعم مع أن بعضها نقم لما أنها أيضا نعم من حيث إنها نصرة للأنبياء والمؤمنين وانتقام لهم وفيها عظات وعبر للمعتبرين" أبو السعود .

---

(١) سورة الزخرف : ٥٥ . (٢) سورة الزخرف : ٥٠ . (٣) سورة النجم : ٥٠ -٥٥ .

وننتقل نقلة أخرى مع آيات من سورة الرحمن حيث نجد حديثا عن الرحمة الالهية - إن الله سبحانه وتعالى يتحدث إلى الثقلين (الانس والجن) فى أسلوب من التهديد بيانا لقدرته على الأخذ بناصية العصاة وإيقاع العذاب بهم لو أنه شاء إيقاعه بهم فى الدنيا لكنه يعطف عليهم ويحنو ويحذر من غضبه أفلا يستوجب كل ذلك شكرا له وحمدا ورجوعا اليه وإنابة واعترافا بنعمه وعرفانا وهذه الآيات من قوله تعالى : "سنفرغ لكم أيها الثقلان" أرأيت إلى هذا التهديد المروع المرعب المزلزل الذى لايقف أمامه جبل شامخ ؟ إنه يحمل معنى كبيرا كأنه يقول لهم : سأتجرد للإيقاع بكم والانتقام منكم وإذا كان سبحانه يؤخر التهديد والانتقام فلا يوقعه بهم ويحذر من المعصية فإن ذلك من رحمته التى تستوجب الشكر ثم بعد ذلك يسأل الثقلين الضعيفين المسكينين "فبأى آلاء ربكما تكذبان" ثم يستمر الترهيب المزلزل المرعب يتحدى الانس والجن أن ينفذا من ملكه الواسع العريض "يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان" ولايملك هذا السلطان إلا رب العزة سبحانه وتعالى "فبأى آلاء ربكما تكذبان" ومازال التهديد مستمرا فهل استمع الإنس والجن إلى هذا الهول الشديد "يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران" أى فلا تمتنعان منهما وإنما ستساقان إلى أرض المحشر ولايمكن أن يكون إلا ما أمر الله عز وجل أحكم الحاكمين ورب العالمين وكان بالإمكان أن يكون ذلك فى الدنيا عندما يعصى له أمر أو تنتهك له حرمة لكنه أخر ذلك عل فى التأخير متابا وإنابة ورجوعا إليه وتوبة وشكرا لفضله ومعرفة "فبأى آلاء ربكما تكذبان" .

ومازالت الأهوال والتخويف معلنة من السورة تستمع إليه القلوب والأفئدة والسعيد من يعرف طريق نجاته من هذه الأهوال ويقدر لكل أمر عدته ويعرف لله فضله وكرمه وعفوه وصفحه ومغفرته ورضوانه ومادام فيه فسحة من عمر وأمل فى رحمة الله فلنجدد التوبة ولنشحذ الهمة من قبل ألا يكون فرصة للعمل الصالح ولازمنا للمتاب . عن أبى هريرة رضى الله عنه قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم

"يومئذ تحدث أخبارها" ثم قال: "أتدرون ما أخبارها"؟ قالوا " الله ورسوله أعلم، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول: عملت كذا وكذا فى يوم كذا وكذا فهذه أخبارها" رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح. ونسوق هذا الحديث فتحا لباب الأمل على مصراعيه أمام الناس حتى يتخلصوا من اليأس وآثاره على الرغم مما كان منهم من آثام وهذا من فضل الله عليهم ولقد كان فضله كبيرا أن مد أمام العصاة حبل الوداد ليدركوا فضل هذه النعمة الغالية وهم- من أجل ذلك مدعوون إلى معرفتها وشكرها. عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: كنت ردف النبى صلى الله عليه وسلم: على حمار فقال : يامعاذ: هل تدرى ماحق الله على عباده وماحق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا وحق العباد على الله أن لايعذب من لايشرك به شيئا فقلت: يارسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: لاتبشرهم فيتكلوا" متفق عليه.

هل فهم الناس هذا ليعودوا إلى الله؟- خاصة العصاة- ونزيد هذا الأمر بيانا وتوضيحا وشرحا وذلك بطرح مجموعة من الأحاديث أمام القراء حتى تظهر هذه النعمة أمام أنظارهم وسوف يتضح أن الله قد وجب له كل أنواع الشكر والحمد على نعمة العفو والصفح والرأفة بعباده. عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عزل وجل: إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة، وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة« رواه البخارى. وروى الحاكم عن أبى الأحوص قال: قرأ ابن مسعود "ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى..." فقال: كاد الجعل يعذب فى جحره بذنب ابن آدم" .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله

تعالى فيغفر لهم" رواه مسلم . وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مامنكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ماقدم وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم وينظر بين يديه فلايرى إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة» متفق عليه.

هذه الأحاديث وغيرها تدل دلالة صادقة على أن الله سبحانه وتعالى قد تفضل على عباده بنعمة التحذير من المعصية والتنبيه على شؤمها وقبحها فى الأهل والولد والمال وبيان ماسيجده العاصى من العذاب يوم القيامة وعدم التعجيل به فى الدنيا انتظارا لتوبة واستغفارا - كما فعل بالأمم السابقة فهل يشكرون لله هذه النعمة ويحمدونه عليها .

الابتلاء بالشر والخير من أسباب الهداية

والله سبحانه وتعالى نوع لعباده أسباب الهداية حتى يقلعوا عما هم فيه من عصيان ويعودوا إليه بعد غياب ويتعرفوا عليه بعد جفاء ، ينوع لهم أسباب العيش فى الدنيا بالترغيب والترهيب بالخصب والجدب بالنعم والنقم بالشدة والرخاء بالسراء والضراء وفى ذلك مافيه من تنبيه للنفس وايقاظ للفؤاد وتربية للفرد والجماعة وأخبر عن أمة سابقة أنه فرقهم فى الأرض فرقا وجماعات ثم ابتلاهم بأنواع الحياة المختلفة فقال تعالى : "وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون" [1] .

وهؤلاء قوم هود يكذبونه ويسخرون منه ومن دعوته ويقومون على الإنكار عليه وعدم الإيمان به ولايتوبون من هذه المقالة السيئة من أنه لاعبث ولاحساب ومستو عندهم أن يرشدهم أو يتركهم- شأنهم فى هذا شأن من كان قبلهم- "قالوا سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين. إن هذا إلا خلق الأولين. ومانحن بمعذبين . فكذبوه فأهلكناهم" وكان هذا الإهلاك جزاء لهم على كذبهم وافترائهم "...

(١) ســورة الأعــراف : ١٦٨ .   (٢) ســــورة الشعراء : ١٣٨ .

إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين"(٢) وكان ما نزل بهم علامة دالة على إهلاكهم وإهلاك من يفعل فعلهم ويسير سيرتهم والسعيدمن اتعظ بغيره ولايغتر بحلم الله عليه وعفوه عنه مهما مد له من أسباب المتاب ونصب له من علامات السماح والصفح فإن عذابه شديد كما قال تعالى : "ومانريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون"(١) فافهموا ذلك يا أهل مكة وليكن ذلك تحذيرا لكم ولمن يكون مثلكم فى مستقبل الزمان وحاضره وسيظل القرآن ينطق بهذه الدلائل والأمارات التى نصبها أدلة ناطقة وتاريخا صادقا على أن الله يملى للعصاة عل فى ذلك فرصة للتوبة والانابة وهؤلاء أهل ثمود وعاد وقوم لوط "ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون"(٢) .

إن الله عز شأنه تدارك الناس برحمته فأرسل إليهم الرسل من أجل أن يوضحوا لهم سبل الرشاد ويهدوهم إلى التى هى أقوم ويبينوا لهم الغاية من وجودهم لكن العصاة مافتئوا يكذبون بهدايات الله فى كل زمان ومكان مع كل عهد وجيل فكان لابد من ضربهم بالفقر والضيق فى العيش وابتلائهم بالأمراض والأسقام والأوجاع والآلام لعل فى ذلك مايجعلهم يخشون له ويذلون فى ساحته وهل فعلوا ذلك فعادوا إلى ربهم ؟ إن آيات الكتاب العزيز تبين بوضوح أن معصية الله من الشرك والكفر والنفاق والجحود والإنكار جعل على القلوب ستارا كثيفا من الظلمة والقسوة فلم تدرك نور الهداية وأنس المناجاة والتوبة وكان ما كان من أمر الله القاهر إذ استدرجهم وبسط لهم أسباب العيش الرغيد ووسع لهم فى الأموال والأولاد ثم أنزل بهم العقاب الموجع قال تعالى : "ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" (٣) وقال تعالى: "وماأرسلنا فى قرية من

---

(١) سورة الزخرف : ٤٨ . (٢) الأحقاف : ٢٧ . (٣) الأنعام : ٤٥.

نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون"[1] قال الحسن البصرى : من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له ومن قتر فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له ثم قرأ "فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون" قال الحسن : مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا ..." وقال الامام احمد : عن عقبة بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه مايحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم "فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون" وقال ابن أبى حاتم : عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إن الله إذا أراد بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصدوالعفاف وإذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم - أو: فتح عليهم - باب خيانة» الطبرى .

هذ : ولقد ابتلى الله مشركى قريش بالمصائب والشدائد كان آخرها القتل فى بدر ، فى الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش حين استعصوا فقال : اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف» وعن ابن عباس أنه قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز - يعنى الوبر والدم وهذا مايشير اليه قول ربنا تعالى : "ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم ومايتضرعون . حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون"[2].

---

(١) ســـورة الأعراف : ٩٥ .　　　(٢) ســورة الأنعـــام : ١٣٣ .

رفع الله العذاب رحمة بالعباد

والله سبحانه وتعالى قد رفع العذاب عن العصاة وأجله إلى حين وستر عليهم مرة ومرة رحمة منه بهم وتغليبا لجانب الرحمة على جانب العذاب والنقمة ثم ابتلاء لهؤلاء العصاة كى يعرفوا فضل النعمة أو ينكروه .

وعلى كل حال فالله غنى عنهم لاتضره معصيتهم ولاتنفعه طاعتهم وهذا مصداق قول ربنا عز شأنه " وربك الغنى ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين . إن ماتوعدون لآت وما أنتم بمعجزين"[١] وقال تعالى : "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم"[٢] وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى غلبت غضبى» رواه الشيخان وأحمد .

وعلى هذا الأساس فإن رحمة الله غالبة وعفوه موجود رغم مايفعله العصاة من جحود ونكران فكانوا - من أجل ذلك - كالسفيه الذى بين يديه كنز لايعرف له قيمة ولايصرفه فى وجوهه النافعة وهذا مايؤكده قول ربنا سبحانه وتعالى : "ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا"[٣] وقال جل وعلا : ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون"[٤] .

إلى هذا العفو والصفح والرحمة من الله بالناس، فإنه لايؤاخذهم بما يفعلون، ولو أنه فعل كما يفعل الناس بعضهم مع بعض من المؤاخذة الشديدة ما عاش على ظهر الأرض إنسان . فهل أدرك الناس قيمة هذا الفضل الإلهى؟ . إن الناس يظلمون

---

(١) سورة الأنعام : ١٣٣.
(٢) سورة فاطر : ٥٤ .
(٣) سورة فاطر : ٤٥ .
(٤) سورة النحل : ٦١ .

أنفسهم حين يعتدون على حرمات الله وليت عاقبة العصيان تقف بآثارها المدمرة عند العصاة وحدهم ولكنها تتعداهم إلى المجتمع الذى يعيشون فيه فشملت الانسان والحيوان والزرع والنبات والثمرات . روى ابن جرير عن أبى سلمة قال : سمع ابو هريرة رجلا وهو يقول : «إن الظالم لايضر نفسه قال : فالتفت اليه فقال : بلى والله !! إن الحبارى لتموت فى وكرها هزالا بظلم الظالم» . وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك العصيان من عباده وهو مطلع على خبايا النفوس : يعلم أنه - سبحانه - إذا رحمهم فسوف يستمرون فى عنادهم ويلجون فى طغيانهم سوف لايعودون الى مرضاة ربهم ولايدركون فضله عليهم قال تعالى : "ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون"[1] وقال تعالى : "فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون"[2] .

وإذا كانت هذه الطبيعة الكنود ديدن الفاسقين من الناس فإن الصالحين من عباد الله يسارعون دائما إلى ربهم يطلبون خيرهم وهدايتهم منه . روى الشيخان عن ابى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن عبدا أصاب ذنبا فقال : يارب إنى أذنبت ذنبا فاغفره فقال له ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم مكث ماشاء الله ثم أصاب وربما قال : ثم أذنب ذنبا آخر فقال : يارب إنى أذنبت ذنبا آخر فاغفره لى قال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم مكث ماشاء الله ثم أصاب وربما قال : ثم أذنب ذنبا آخر فقال : يارب أنى أذنبت ذنبا فاغفره لى فقال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ماشاء« وروى الطبرانى بإسناد حسن عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحسن فيما بقى غفر له مامضى ومن أساء فيما بقى أخذ بما مضى ومابقى» وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه وليس أحد أغير من الله ومن أجل

(١) سـورة المؤمنون : ٧٥ . (٢) سـورة الزخرف : ٥٠.

ذلك حرم الفواحش وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتب وأرسل الرسل» رواه مسلم .

ولايظلم ربك أحدا

وإذا كان الله سبحانه وتعالى لايعاجل المذنبين بالعقوبة والأخذ وإنما يمد لهم في أسباب المتاب كي يهيئ لهم سبل التطهر النفسي والانابة الصادقة والعودة السريعة إلى الاستقامة والندم على ماكان منهم. إذا كان الأمر كذلك فإنه- أيضا- لايظلم أحدا أخذه بذنب فعله في الدنيا أو عذبه بعصيانه في الآخرة كما قال عز شأنه: "فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون"[1] هكذا!! أهلك الله عادا حين قالوا: من أشد منا قوة.. فأهلكهم الله بريح صرصر شديدة الهبوب "عاتية" وأهلك ثمودا بعد أن أقام عليهم الحجة بخروج الناقة لهم من الصخرة حين طلبوا من نبيهم صالح ثم اعتدوا عليها فذبحوها رغم التحذير الشديد من هذا الجرم الشائن فأخذتهم صيحة مدوية أخمدت أنفاسهم وحركاتهم وأهلك قارون حين طغى وعتا وبغى وغره ماله وقال عنه "إنما أوتيته على علم عندي" فخسف الله به وبداره الأرض وأهلك فرعون وهامان والجنود في وقت واحد حين كفروا وتعدوا حدود الله وادعى زعيمهم الألوهية وقال لهم "ماعلمت لكم من إله غيري"، "أنا ربكم الأعلى".

حقت على الجميع كلمة العذاب والتدمير والاهلاك بما كسبت أيديهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا جدا على مستقبل أمته أن يأخذها غرور المادة وطغيان المال وزخارف الحياة فكان يعظ ويرشد وينبه ويضرب الأمثال من أجل أن يحول بين الأمة وبين معاول الهدم في الأمم حتى لايصيبها ما أصاب غيرها من دمار وضياع وذلة وهوان وهذا حديث رواه البيهقي وابن ماجة نطرحه على سبيل المثال . عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنا جلوسا عند رسول الله صلى

---

(١) العنكبوت : ٤٠ .

الله عليه وسلم فقال: "كيف أنتم إذا وقعت فيكم خمس وأعوذ بالله ان تكون فيكم أو تدركوهن؟ ماظهرت الفاحشة فى قوم يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى اسلافهم وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ومابخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله الا سلط الله عليهم عدوهم فاستنفدوا بعض مافى أيديهم وماعطلوا كتاب الله وسنة نبيه إلا جعل الله بأسهم بينهم تنبيه وتحذير واستعاذة من رسول الله من أمور تقع فى أصحابه أو يدركوها حتى لايتعرضوا بسببها لأمور لاقبل لهم بها فيقعوا فيها فيحدث لهم ما استعاذ بالله منه وقد قال الله جل جلاله أن عقاب المفسدين من صنع أيديهم ولايمكن أن يكون أبدا عفويا "وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين" [١].

إن الناس فى كل عهدهم الذين يجلبون على أنفسهم غضب الله وعقابه بشؤم معصيتهم له وهم باستطاعتهم أن يباعدوا بينهم وبين النار، باستطاعتهم أن ينجوا من العثار والتردى فى المهالك لو أنهم شاءوا واقرأ فى ذلك قول الله تعالى: إن الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون"[٢] وفى الصحيح عن أبى ذر رضى الله عنه: عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال فى الحديث القدسى: ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما فلا تظالموا ... ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" .

وبعد استعراض هذه الآيات وماتيسر من الأحاديث نعتقد أن القضية قد ظهرت واضحة لاشك فيها فإن الله قد خلق الناس ليكرمهم لاليهينهم فهم عباده وهو ربهم فلا ظلم ولاجور ولا محاباة وتعالى سبحانه عما يفترى الظالمون الضالون وهو القائل عر شأنه "إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما" [٣]. قال الامام احمد: حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا جرير بن حازم

---

(١) الـزخرف : ٧٦ . (٢) يـونس : ٤٤ . (٣) النسـاء : ٤٠ .

حدثنا الحسن عن صعصعة بن معاوية -عم الفرزدق - أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" قال حسبى لا أبالى أن لا أسمع غيرها" .

من أجل ذلك كان إهلاك العصاة عن بينة وحجة واضحة وكان الإحياء عن دليل واضح وبرهان ساطع حتى لايكون لهم على ربهم حجة "وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"[1] وروى الشيخان والترمذى عن زينب بنت جحش رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوما فزعا يقول : لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه" وحلق بإصبعيه الابهام والتى تليها قالت زينب : فقلت : يارسول الله !! أنهلك وفينا الصالحون ؟" قال : نعم إذا كثر الخبث" .

فالله تعالى غنى عن ظلم عباده وبالتالى لن يهلك قرية آمنة صالحة تعرف ربها وتؤمن به ولن يهلك قوما صلحت سريرتهم واستقامت أمورهم قال تعالى : "مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما" [2] .

---

(١) سورة هود : ١١٧ .　　(٢) سورة النساء : ١٤٧ .

الفصل
الثالث

احذروا غضب الله

احذروا استدراج الله .
لاتنفع مع المعاند حجة .
المصائب سببها الذنوب .
قد يصيب العقاب غير المذنب .
انتقام الله ممن خالف .

إحذر أن يستدرجك الله

وإذا كانت رحمة الله تسبق غضبه وأنه لايعاجل العصاة بالعقاب لعلهم يتوبون من عصيانهم لعلهم يعودون إلى مرضاة ربهم ويكونون طوع أمره فإنه - كذلك سبحانه - ينتقم بشدة فيأخذ بالذنب ويعذب ويستدرج المذنبين من أجل الايقاع بهم فيعطى المذنب مايشاء من نعم وخيرات ينعم بها عليه فى المال والولد فى الجاه والمنصب فى الصحة والقوة . ومن هنا وجب على الانسان ان يراجع نفسه ويحاسبها على مامعه من خير ونعمة ومتاع ليعرف هل أدى حق الله فيه ؟ وهل صعد لربه من واجبات الشكر ماهو به أهل ؟ فإن كان على هدى وتقوى من الله وادى حقه فيها استبشر ورجا المزيد من فضله وان كان على خلاف ذلك فليسارع بالرجوع الى الله فإنه - والحالة هذه - قد حاد الله وعانده وأصبح انتقام الله منه قريبا وهذه سنة الله فى عقاب العصاة لايمكن أن تتخلف وهى حقيقة أساسية من حقائق معاملة الله لعباده وهى معلومة ومعروفة قد وضحتها آيات الكتاب العزيز وشرحتها أحاديث الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم قال تعالى : "أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين" وهذا فى الدنيا "نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون" [1] هذا هو الاستدراج بعينه ، استدراج من الله لهم حتى لايكون لهم حجة ويقع العصاة فى الخطأ فى كل عهد وجيل حين ظنوا أن نعم الله عليهم من مال ومتاع وأولاد إنما هو لكرامتهم عند الله وأنهم على عوجهم لن يعذبوا وساروا فى هذا الغرور شوطا كبيرا "وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين"[2] وماعرفوا أنهم فى بعد كبير عن الله "فلا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون"[3] قال قتادة فى قوله تعالى : "أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون" قال : «مكر - والله - بالقوم فى أموالهم وأولادهم ، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم ولكن اعتبرهم بالايمان

---

(١) سـورة المؤمنون : ٥٦ . (٢) سـورة سبأ : ٣٥ . (٣) سورة التوبة : ٥٥ .

والعمل الصالح» وروى الإمام احمد عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وأن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولايعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذى نفسى بيده لايسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولايؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا : ومابوائقه يانبى الله ؟ قال : غشمه وظلمه ، ولايكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولايتصدق به فيقبل منه ولايتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لايمحو السئ بالسئ ولكن يمحو السئ بالحسن إن الخبيث لايمحو الخبيث» .

إن المحمقين المغرورين يظنون أن الأموال والأولاد وغير ذلك من متاع الدنيا وزخرفها عنوان الكرامة عند الله فضاع منهم بهذا الظن أحسن مايحرص عليه المؤمن من خشية لله ومراقبة لجلاله وأصبحوا فى هوة سحيقة وباتوا فى بون بعيد عن رحمة الله "وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون"[١] .

فوجب على الانسان أن يحذر استدراج الله له ومكره به وليعلم أنه عبد ذليل ضعيف أمام الله القوى القهار فقد يعفو عن المذنب مرة ويستر عليه ويصفح عنه أخرى ويسامحه وليكن على حذر شديد من بطشه وقهره وعقابه ولايغره أن فتح له أبواب الرزق ومهد له أسباب الحياة المستقرة الطيبة فى الدنيا ويسر له وجوه المتعة الواسعة السعيدة "والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين"[٢] وروى الشيخان والترمذى وابن ماجة عن أبى موسى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد"[٣] وفى مسند الإمام أحمد عن عقبة عن عامر رضى الله عنه عن النبى

---

(١) سبأ : ٣٧ . (٢) الأعراف : ١٨٢ . (٣) هود : ١٠٢ .

صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا- على معاصيه- مايجب فإنما هو استدراج ثم تلا "فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون"[1] قال ابن عباس: المبلس: الآيس. أى إنهم آيسون من كل خير وقال الحسن البصرى: من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له» ثم قرأ : "فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون" قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا » وقال قتادة: بغت القوم أمر الله وماأخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعيمهم فلا تغتروا بالله إنه لايغتر بالله إلا القوم الفاسقون" وقال ابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف وإذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة" .

من أجل ذلك نقول : وجب على الانسان أن يفكر كثيرا فيما بين يديه من نعم هل ماهو فيه من خير ساقه الله عليه نتيجة عبادة خاشعة لله واستقامة هادية على أمره وإخلاص له فى كل مجالات الحياة فإن كان كذلك فليحمد الله وإن كان غير ذلك رجع سريعا إلى الله لأن الأمر - والحالة هذه - أنك قد أغضبته بنعمه وصارت النعمة بهذا الاغضاب علامة سخط شديد وبداية نكد عريض ولايغتر بحلم الله عليه فقد قال عز شأنه : "ولايحسبن الذين كفروا أنما نلى لهم خيرا لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين"

ولانترك هذه المسألة حتى ننبه على أمر له خطورته وأهميته فإن المذنب إذا استمرأ حياة اللهو والشر والاعتداء على حرمات الله فإنه يرى حسنا ماليس بالحسن إنه إنسان اختلت فى ذهنه المفاهيم نتيجة المعاصى والآثام فقد تركت ظلمة فى القلب وكدورة فى الفكر وذلك ماتتحدث به آية من الكتاب العزيز قال تعالى : "فمن زين

(١) سـورة الأنعـام : ٤٤ .

له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلاتذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون"[1] وقال تعالى: "إن الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون"[2] إنهم يترددون فى أعمالهم ويتخبطون فى ضلالهم ويتمادون فى غيهم ويلعبون فلايجدون ويتيهون فلا يهتدون. فالعمه : هو التردد والتحير "أولئك لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الخاسرون"[3] .

لاتنفع مع المعاند حجة

ولقد كان العناد - ومازال - يفعل بصاحبه كل مامن شأنه أن يقعد به عن طلب الخير كائنا ما كان هذا الخير فرأينا المعاند يدفعه عناده إلى أن يرفض دعوة الحق مهما صاحبها من أدلة واقترن بها من هداية فرفض دعوات الرشاد والإصلاح بل وتآمر عليها راجيا إطفاء نورها وإحباط عملها وضياع أمرها وتعطيل سيرها ولم يقف أمر العناد عند حدود الفكر والعقيدة وإنما تعداه إلى النواحى الاصلاحية والاجتماعية ورأينا المعاندين يأتون من الأعمال والأفكار مايعرقل سعى الدعاة ويبطل خطط الاصلاح وهذه مجموعة من آيات القرآن الكريم تصور لنا موقفا من مواقف العناد والتحدى والمكابرة كان من مشركى قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكة إذ قالوا له بهذا الصلف والتحدى كما حكى القرآن "لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تأتى بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا"[4] .

إن العاقل ليعجب من أمر أهل العناد. هل هو الحق والحسد؟ هل هو الغيظ والبغضاء؟ هل هو ضيق النفس وحرج الصدر والكراهية الأثيمة من راية الاصلاح وحامليها ؟

---

(١) سورة فاطر : ٨ .
(٢) سورة النمل : ٤ .
(٣) سورة النمل : ٥ .
(٤) سورة الإسراء : ٩٠ -٩٣ .

عالج القرآن هذا الأمر العجيب الشائن فكشف النقاب عن نفسية هؤلاء المعاندين فظهر من مواقفهم مع المصلحين انه لن تنفع معهم حجة أو تجدى معهم نصيحة ولو تنزلت عليهم من السماء قال تعالى:- وهو بهم عليم- "ولونزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين"(١) أرأيت إلى عناد المشركين وكفرهم ومنازعتهم للحق ومكابرتهم إنهم يعلنون لو أن كتابا نزله الله عليهم من السماء وعاينوه ورأوا ذلك بأعينهم وباشروه بأنفسهم لقالوا: ما هذه الرسالة إلا سحر وشعوذة وإفك وافتراء ثم تستمر الآيات تتكلم عن كره هؤلاء وعنادهم.

هذه آية كريمة تبين أنهم لو رأوا شيئا ينزل عليهم من السماء لعذابهم لما صدقوا به "وإن يرو كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم"(٢): متجمع يرقون به ولايؤمنون .

وهذه آية أخرى تفصح عن مكابرتهم وعدم إذعانهم لما يرونه من أدلة مهما بلغت من قوة الوضوح والاشراق قال تعالى : "ولو فتحنا عليم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون"(٣) فلن ينتفعوا بدليل ولن يقتنعوا ببرهان ولن يهتدوا بتوجيه . لم تنفعهم المواعظ والارشاد وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منهم فأفصح عن مكنون ضمائرهم فقال : "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون"(٤) وتستمر آيات القرآن فى بيان تكذيبهم وعنادهم وصلفهم واستعلائهم أمام كل دليل وبرهان كما قال عز شأنه: "ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا أفلم ييئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لايخلف الميعاد(٥).

---

(١) الأنعام : ٧ . (٢) الطور : ٤٤ . (٣) الحجر : ١٤ .
(٤) الأنعام : ١١١ . (٥) الرعد : ٣١ .

والله سبحانه وتعالى رءوف بالناس ورحيم أنعم عليهم بنعم كثيرة ظاهرة وباطنة فهم يتقلبون فيها ليل نهار من فضل الله وكرمه وكان أحرى بهم أن يشكروا لله نعماءه التى يتقلبون فيها صباح مساء لكنهم لايفعلون وليتهم وقفوا عند هذا الحد بل هجموا ويهجمون على المحرمات والمحظورات فتركوا الصلاة وجحدوا الزكاة واعتدوا على الجار وغشوا فى البيع وبخسوا الكيل والميزان وتعاطوا الربا وشربوا الخمر وأكلوا مال اليتيم واستغلوا حاجة المحتاج وطغوا وبغوا : فعلوا ذلك وغيره وغفلوا عن كل مافعله الصالحون مما يرقى الوجدان ويقوى الايمان واليقين فنزل بهم من القوارع والنكبات والحزن والنصب ماينبههم من الغفلة ويقيلهم من العثرة ويرجعهم سريعا إلى مرضاة ربهم ويذكرهم بآيات الله فى عباده وهى سنة ماضية فى الكون أن ينبه الناس بين الحين والحين بهذه القوارع والكوارث والنكبات التى تحل بهم من صنع أيديهم كما قال تعالى : "وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير"[1] قال العلماء : أى من السيئات فلا يجازى عليها بل يعفو عنها . وفى الحديث الصحيح «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : والذى نفسى بيده مايصيب المؤمن من نصب ولاوصب ولاهم ولاحزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها» البخارى . وقال ابن جرير الطبرى : حدثنا يعقوب بن ابراهيم حدثنا ابن علية حدثنا أيوب قال : قرأت فى كتاب أبى قلابة قال : نزلت "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" وأبو بكر يأكل فأمسك وقال يارسول الله : إنى لراء ما أعمل من خير وشر ؟ فقال : أرأيت مارأيت مما تكره فهو من مثاقيل ذر الشر وتدخر مثاقيل الخير حتى تعطاه يوم القيامة قال : قال أبو إدريس : فإنى أرى مصداقها فى كتاب الله (وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) . وروى ابن أبى حاتم عن أبى

---

(١) سورة الشورى : ٣٠ .

جحيفة قال : دخلت على على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : ألا أحدثكم بحديث ينبغى لكل مؤمن أن يعيه ؟ قال : فسألناه فتلا هذه الآية (وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) قال : ماعاقب الله به فى الدنيا أحلم من أن يثنى الله عليه العقوبة يوم القيامة وماعفا الله عنه فى الدنيا فالله أكرم من أن يعود فى عفوه يوم القيامة» وروى الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له مايكفرها ابتلاه الله بالحزن ليكفرها » وقال ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال فى قوله : وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير قال : لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذى نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب ومايعفو الله عنه أكثر» وقال - أيضا - عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى فى جسده فقال له بعضهم : إنا لنبتئس لك لما نرى فيك قال : فلا تبتئس بما ترى فإن ماترى بذنب ومايعفوا الله أكثر ثم تلا هذه الآية "وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير" .

إن حال الناس مع ربهم عجب من العجب يعصونه فإذا نزل بهم من المكروه جزاء ما اقترفوا من آثام قنطوا ويئسوا وعلقوا كل شئ على المقادير وكان الأحرى بهم أن يعودوا إلى أنفسهم فيحاسبوها على ما اقترفت من معاص وذنوب وبذلك يضعون الحق فى نصابه ويعرفون طريق الخير والصواب ومن عجب أنهم يفعلون ذلك مع أمور الحياة المختلفة فالتاجر إذا أصابه خسران وبوار شرع سريعا يدرس أسباب الخسارة كى يعرف سبب هذه الخسارة ، هل هى فى البضاعة نفسها من عدم الجودة وغيرها ؟ أو فى نظام السوق وما كان عليه نظام العرض والطلب ؟ ولا يهدأ له بال حتى يضع يده على السبب ثم يأخذ فى تلافيه والبعد عنه فى المستقبل . وقل مثل ذلك فى الزراعة والزارع إنه - الزاراع - يحاول جهد المستطاع أن يباعد بين زراعته وبين مايتلفها أو يعطبها أو يؤخر نماءها وزيادة محصولها ثم يضع من

المشاريع والخطط والأفكار ما يزيد من غلتها . يفعلون هذا مع أمور الحياة الحسية ولايفعلون مع أمور الطاعة والعبادة والأخلاق ويتركون النفس على سجيتها حرة طليقة فيما تفعل وتترك حتى يقع المحظور : وهنا نجد الصراخ عاليا والسخط على القدر صاخبا ، إن ذلك هو مايشير اليه قول ربنا عز شأنه : "وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون"[١] .

هذه هى حالة الناس مع ظروف الحياة : لماذا كان الفرح ولماذا كان القنوط ؟ لماذا يفرحون للخير ولايعرفون مصدره ؟ ولماذا يقنطون من الشر ولايدرون سببه ؟ إن العقلاء وحدهم هم الذين يعرفون سبب هذا كله "ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد"[٢] .

فلتبتعدوا أيها الناس عن أسباب البغى والعدوان والظلم والجبروت والتعدى على حرمات الله تعالى ... إن اليهود حين تجاوزوا حدود الله ولم يخضعوا لأمره وتدخلوا فى شرع الله يغيرون ويبدلون ويحرفون الكلم عن مواضعه ويحللون حسب أهوائهم ويحرمون فقد حرم الله عليهم نعما هى من الطيبات التى أحلها الله لهم فضيقوا على أنفسهم ماوسعه الله عليهم كما قال تعالى : "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم" والسبب فى هذا التضييق بعد التوسعة والتحريم بعد أن كان من الطيبات هو تدخلهم فى أمر الله وهذا ماأشارت إليه الآية فى ختامها "ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون"[٣] .

وهؤلاء قوم سبأ باليمن كان من أمرهم ما كان من سعة فى الرزق وأمن فى الحياة على ما يأتى تفصيله فى الفصل الأخير من الكتاب ان شاء الله : ماذا كان من شأنهم ؟ أنعم الله عليهم بنعم الخير الوفير والعيش الهنى فبطروا وكفروا النعمة وجحدوا الفضل الإلهى فكان أن عذبهم الله بمحق هذا الأمن والاستقرار "ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور" .

---

(١) سورة الروم : ٣٦ . (٢) سورة الحج : ١٠ . (٣) الأنعام : ١٤٦ .

وهؤلاء مشركو مكة ناوءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقفوا فى طريق الدعوة وصادروها فى كل طريق وسخروا من الرسول وآذوا أصحابه وقالوا فى حقهم ماقالوا من سخرية واحتقار وإهانة فحقت عليهم كلمة العذاب ضيقا فى الرزق وجدبا فى وسائل العيش وقتلا وأسرا فى الحرب وخزيا ونكالا فى الدنيا والآخرة كما قال عز شأنه : "وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون"(١) .

وبعد .... ! فإن مفتاح الخير والأمن والاستقرار والسعادة فى أيديكم - أيها الناس - فإن أردتم سعادة الحال وهناءة البال والهدوء والطمأنينة فخذوا بأسباب ذلك كله من تبديل العصيان بطاعة الرحمن ومن عوج الأمور إلى الاستقامة فيها فقد جرت سنة الله فى خلقه أن يكون التغيير من داخل النفس فتستقيم على أمر الله وتمشى على طريقه فإذا كان سلب النعمة بذنب ارتكبه صاحبها فإن إعادتها سوف تكون برفع الذنب وتركه والعود إلى طاعة الله والخضوع لأمره وذلك قول ربنا سبحانه : "ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم"(٢) وهو قانون ثابت لايتغير ولايتبدل لأنه وضع العليم الخبير سبحانه وتعالى: "إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال"(٣) قال ابن أبى حاتم : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك : إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا تحول الله لهم مما يحبون إلى مايكرهون" ثم قال : "إن مصداق ذلك فى كتاب الله " "إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" .

قد يصيب عقاب الذنب غير فاعله

وقد يبدو هذا القول غريبا على السمع وربما بادر بعض من لافهم له بإنكاره فإن فاعل الذنب هو الذى يقع عليه عبء هذا كله ولكن بالتأمل سنرى كيف تتعدى

(١) النحل : ١١٢ . (٢) الأنفال : ٥٣ . (٣) الرعد : ١١ .

عدوى الذنب إلى غير فاعله من أصدقائه وجيرانه وأهل قريته فيصاب بالعدوى الذنبية ويصبح مذنبا قد أصابه ما أنكره وكان عنه بمنأى لو أنه أراد أن يبعد نفسه عن مكان الفساد ويجنبها عصبة الشر والعصيان والفتن لأن فى أوقات الفتن والقلاقل والطغيان قد تحدث أمور سيئة لا يلقى لها الانسان بالا وقد يستسهلها فى البداية ولا يعرها اهتماما ما وربما خاض فيها وعندئذ صار لزاما عليه أن يحدد لنفسه قبل الخطو موضعها وإلا كان مشاركا فيها فيصيبه مايصيب المفسدين والعصاة وقد قال الله تعالى : "واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة"[١].

إن ظهور المعاصى وانتشارها فى المجتمع وسكوت الناس عن تغييرها سبب كبير من أسباب الهلاك للجميع وتعرضهم لغضب الله عز وجل وهو وضع يساعد المجرمين والظلمة والمنحرفين على أن يعلنوا عن إجرامهم ويظهرون بين الناس بعصيانهم وفسوقهم دون نكير وحينئذ سيتعدى وباء المعصية إلى الناس جميعا ولايبقى مقصورا على مرتكبها وهو ماتشير اليه الآية الكريمة فى قول ربنا سبحانه وتعالى : "لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون"[٢] .

أمرت الآية الأولى بأمر على جانب كبير من الأهمية : هو ابتعاد الناس عن فتنة - أى فتنة - إن وقعت لاتقف بأثرها المدمر عند من ارتكبها بل تعم الجميع . وبينت الآية الثانية أن لعنة الله وقعت على مجموعات من الناس فى أمة سابقة استمرأت حياة الفسوق والعصيان فارتكبوا المنكرات وخالفوا أوامر الله ولم ينكر بعضهم على بعض ولم ينصح بعضهم بعضا .

إن الخلاص من هذا كله لن يكون إلا بالبعد عن المعصية وأسباب الفتن والكف عن الإسراف فى الذنوب والأخذ على أيدى المجرمين الذين يجاهرون بالمعصية وذلك هو اتقاء الفتن والبعد عن القلاقل وعواملها .

---

(١) سورة الأنفال : ٢٥ . (٢) سورة المائدة : ٧٩ .

وهذه مجموعة من الأحاديث النبوية تشرح هذا الأمر الخطير حتى يكون الناس على بينة منه. عن النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: مثل القائم على حدود الله والواقع فيه كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو إنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا" رواه البخارى. أرأيت إلى هذا البيان الرائع، أرأيت إلى هذا التشبيه البليغ من النبي صلى الله عليه وسلم حين جعل المجتمع كالسفينة؟ إن هذه السفينة- حتما- ستغرق إذا تهاون من نزلوا فى أعلاها مع الذين سكنوا فى أسفلها إذا أرادوا خرقها بحجة قرب المسافة إلى إحضار الماء. إن هذا الإجراء يشبه تماما فعل الفساق والمجرمين والظلمة إذا لم يجدوا من ينكر عليهم فسقهم وفجورهم وظلمهم ويجاهد فى هذا السبيل فإنهم إذا تركوا وشأنهم فسوف يدمرون المجتمع ويهلكون الأفراد ويغرقون الجميع فى اللذات والفجور.

وعن العرس بن عبيدة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لايعذب العامة بعمل الخاصة حتى تعمل الخاصة بعمل تقدر العامة أن تغيره ولاتغيره فذاك حين يأذن الله تعالى فى هلاك العامة والخاصة» رواه الطبرانى. أرأيت إلى التعبير العادل؟ إننا نرى مخالفة يمكن أن تقع فى أى مكان وفى أى زمان. تفعل المنكرات وتشيع ثم لانرى من ينكر مرتكبيها ولا من يرشد إلى خطورتها وتدميرها للمجتمع وعندئذ لابد من عقاب الجميع، هذا بالرضا عن المنكر وهذا بفعله .

وعن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا ظهرت المعاصى فى أمتى عمهم الله بعذاب من عنده فقلت : يارسول الله !! أما فيهم أناس صالحون ؟ قال : بلى قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان» رواه الامام أحمد . وروى - أيضا - أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما من

قوم يعملون بالمعاصى وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لايغيرون إلا عمهم الله بعقاب - وأصابهم العقاب». وروى ابن حبان فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : «قلت يا رسول الله: إن الله أنزل سطوته بأهل الأرض وفيهم الصالحون فيهلكون بهلاكهم؟؟ فقال ياعائشة !! إن الله إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصالحون فيصيرون معهم ثم يبعثون على نياتهم» . إذن لابد من عتاب وعقاب لابد من سؤال وحساب نتيجة وقوع المعصية فإن الله لابد من طاعة أمره والبعد عن معصيته ولايؤخر وقوع العقوبة والهلاك مايكون فى المجتمع من أناس طيبين صالحين لم يرضوا بالذنب يشيع أمام أعينهم وهم صامتون عنه ؟

وفى ختام هذه الجولة لابد من وقفة مع مايتبادر إلى الذهن من قوله تعالى : "ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم[1] لايضركم من ضل إذا اهتديتم" وسنعرض لآراء العلماء فى بيانها حتى يبتعد كل لبس يعلق بالذهن عن معناها وأول مانطرحه بهذا الخصوص رأى أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : «ياأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية» : "ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم" وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» رواه أصحاب السنن . قال البيضاوى : أى احفظوا أنفسكم والزموا إصلاحها لايضركم الضلال إن كنتم مهتدين والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم» وقيل : «كان إذا أسلم الرجل قالوا له : سفهت اباءك فنزلت» وقال سعيد بن المسيب : « إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلا يضرك من ضل إذا اهتديت» تفسير القرطبى . فالآية مع مايؤخذ من الأحاديث التى رويت فى هذا الباب يعطى المراد منها فلابد من مجاهدة المنكر والفحشاء ولابد من الوقوف صفا واحدا فى وجوههم لابد من التناصح فالدين النصيحة كما ورد فى السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعلنا بإيراد هذه الأقوال عن الآية يتضح المراد منها والله أعلم .

(١) سـورة المائدة : ١٠٥ .

إنتقام الله ممن خالف

والله سبحانه وتعالى إذا عذب أحدا فإنه يوقع عذابه لمن خالف أمره وارتكب نهيه وأصر على هذا العصيان فلم يصغ لنصيحة ولم ينتفع بتوجيه والعبد اذا بلغ هذه الدرجة من العناد والمكابرة والغرور سيعذب كائنا من كان . فمن اطاع الله دخل الجنة ولو كان عبدا حبشيا ومن عصى الله دخل النار ولو كان شريفا قرشيا . إذن : فالعقاب حق والثواب حق كذلك . العقاب لمن أساء عمله وعصى ربه يستوى فى ذلك منافق وغيره منتسب للإسلام أو بعيد عنه : هى إذن سنة من سنن الله فى خلقه . فإن الخلق كلهم عباد الله وهو ربهم وخالقهم فليس بينه وبين أحد منهم نسب أو محاباة أو مجاملة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا "وماخلقنا السماء والأرض ومابينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار"[1] .

وعلى هذا مضت سنة الله فى خلقه أن يعاقب المسئ كائنا من كان فليس هناك كبير أمام عدل الله ولو عرف المذنب ذلك على الحقيقة لوقف طويلا وفكركثيرا قبل أن يقدم على معصية الله ولم يغتر بحلم الله عليه إذا بسط له من أسباب الرزق والخير ومن دواعى العيش السعيد مايجعله يقلع عن عصيان ربه ولو علم المذنب علم اليقين أن رقابة الله عليه شديدة ولايمكن أن يفلت من قبضة الله لما أقدم على ذنبه "واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا" وفى يوم القيامة ستتضح الحقائق ويرى كل إنسان ماأعد له من نعيم مقيم أو عذاب أليم كما قال عز شأنه "وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لابارد ولاكريم"[2].

والتدمير الذى أشار إليه القول الكريم "فدمرناها تدميرا" يعنى مايحدث من الفتن والقلاقل واختلاط الأمور واضطراب الحياة وتكاثف الظلمات . يعنى مايحدث

---

(١) سورة ص : ٢٨ .

(٢) سورة الواقعة : ٤٣ .

بسبب الكفر والالحاد والفسوق والفجور . يعنى مايحدث للناس من أنواع الجهل والضعف وتشتيت الكلمة والاختلاف والتفرق والظلم والجبروت . .

ولعل مايحدث فى منطقتنا العربية هو نتيجة حتمية لهذا الذى قلناه ونقوله بين حين وآخر للناس ويقوله غيرنا لهم . لعل مايحدث فى منطقتنا العربية خاصة والبلاد الاسلامية عامة من حكم بغير كتاب الله وسنة رسول الله واتباع للهوى وحلول الشر وتطاول الاشرار وكثرة الفساد والخبث والاختلاف والتمسك بكثير من البدع والتقاليد الفاسدة والمحسوبية والرشوة والوساطات لأخذ الشئ من أربابه ومحاربة الكفايات وعدم وضع الشئ فى موضعه الصحيح ، والجدل الطويل خاصة فى أمور الدين ناسين قول النبى صلى الله عليه وسلم : «ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم قرأ "ماضربوه لك إلا جدلا" رواه أحمد وأصحاب السنن عن أبى هريرة ، والاختلاف على العلماء والدعاة المصلحين واحراجهم بكثرة الأسئلة ومخالفتهم فيما يأمرون به وينهون عنه وما علمنا أن هؤلاء هم ورثة الأنبياء وحملة الرسالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فالطاعة لهم والاستماع اليهم أمر واجب ثم مايتصل بهذه المخالفات التى كانت سببا لبلائنا - مايحدث فى منطقتنا من دعوات تفرق أكثر مما تجمع وتورث الغلو فى الدين الذى نهى عنه رسول الله . لعل مايحدث فى منطقتنا العربية والساحة الاسلامية من التنافس فى الدنيا والتقاتل عليها والصراع من أجلها بغية الرغبة فيها والانفراد بها دون الغير كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم من قبل «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء هى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر» الترمذى . ثم ما انتشر بيننا من الشح بالمال والضن به على قضايا الاسلام والدعوة إليه والجهاد فى سبيله ومنع حق الفقير والمسكين منه وفى هذا ما فيه من الهلاك والضياع كما روى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» البخارى . ثم ماوجد فى مجتمعنا من بخس الكيل

والميزان وأكل حقوق الناس ونقض العهود والمواثيق التى يجب الوفاء بها "ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم" (١) .

وروى البزار عن بريدة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مانقض قوم العهد إلا كان القتل بينهم ولاظهرت فاحشة فى قوم إلا سلط الله عليهم الموت ولامنع قوم قط للزكاة إلا حبس الله عنه القطر» . ثم ماظهر فى مجتمعنا من الزنا والربا والتبرج والسفور وانتشار هذه الأوبئة بيننا انتشارا يؤذن بضياع كل حشمة ووقار ودمار ينزل بنا ونعوذ بالله .

أقول: لعل مايحدث فى منطقتنا هذه - العربية - وعلى الساحة الاسلامية من أدواء اجتماعية وأخرى عقيدية وسياسية واقتصادية تؤذن بانهيار المجتمع وترديه وتجعله نهبا لأصحاب الأطماع الاستعمارية وتحوله إلى مسرح لعمليات الضرب والحرب والسلاح وغير ذلك مما يتمخض عنه العقل الاستعمارى، نقول: إن مانزل بنا وينزل من هذه الأدواء والفتن والقلاقل هو نتيجة حتمية لما صرنا إليه وتردينا فيه، جاء فى الصحيحين من كتاب الفتن عنه صلى الله عليه وسلم فى حديث «هل ترون ما أرى؟ قالوا: لا. قال: فإنى لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع المطر».

لعل ما نحن فيه من ذل وهوان هو حصيلة هذا التفرق والانقسام فى صفوفنا . روى أبو داود وغيره من حديث ثوبان مرفوعا «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها قالوا : أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال: بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن قالوا : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت» .

هذا مايجب أن يفهمه مسلموا العصر الحديث والعرب على وجه الخصوص .

---

(١) سورة يس : ٦٠ .

الفصل الرابع

مهلكات الأمم والشعوب
اللعنات السبع

بين يدى الفصل ..

معاول الهدم والهلاك ..

سبيل الخلاص من هلاك الذنوب ..

الهلاك بعد البلاغ والانذار ..

النتيجة الحتمية :

* فرعون المتكبر وملؤه * عذاب وانتقام .. * وأسدل الستار ..

أمم سادت ثم أهلكتها المعصية :-

* سبأ ومافيها من عبرة .. * أصحاب الجنة ..
* قصة عاد وثمود .. * قصة قوم لوط ..

نفوس تؤخذ منها دروس :-

* صاحب الجنتين .. * إلى قوارين العالم الاسلامى ..

كلمة الختام ونهاية .

بين يدى الفصل

مهلكات الأمم والشعوب الفصل الأخير من الكتاب الذى كان من أجله تأليف كتاب يتولى شرح مايصيب الأمم والجماعات والأفراد من دمار وهلاك وضياع وذلة وهوان حين يخرجون على هداية الله ويتمردون على أمره وعلى هذا الأساس كانت الفكرة الأولى لتأليف هذا الكتاب وحين بدأ التنفيذ وبدأت الكتابة لوحظ أن الفكرة أعمق من أن تكون مجرد شرح لهذه الأمور التى تهلك الأمم فما السبب فيها ؟ وهل الهلاك ينزل- هكذا- سريعا دون مقدمات تدعوا إليه وإرشادات تحذر منه ؟

ومن أجل ذلك كان لابد من تتبع الأسباب التى تدعو إلى الإهلاك والسخط الالهى من بداياتها الأولى حتى يكون الناس على بينة من أمرها ثم بيان أن رحمة الله نعمة متاحة لو أخلص الناس نياتهم وأحسنوا أحوالهم وتوجهوا بقلوبهم إلى الله وعاشوا طبق ماتدعوا إليه تعاليم الدين وهداه وبيان مايجب أن يكون الناس عليه من حذر شديد يحول بينهم وبين مايوقعهم فى سخط الله وغضبه وبذلك مهدت الفصول الأولى بإفاضة لهذا الفصل الأخير الذى كان بمثابة النتيجة التى ختمت هذه المحاولة وأسدلت الستار عليها والتى ينتهى إليها أى أمر من الأمور سبقته إشارات ودعت إليه مقدمات وهى- من غير شك- "سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا" .

وسيكون هذا الفصل بيانا وشرحا لما حل بالأمم والأفراد من العقاب والهلاك وضياع شأنهم حين عصوا ربهم واستحبوا حياة الفسوق والظلم على حياة الاستقامة والايمان فكان فى ذكر هذه الصور تنبيه وتطبيق على أحوال هذه الأمم الماضية حتى تكون ماثلة حية أمام أنظار الجيل الحاضر وذلك من خلال آيات القرآن الكريم . وسنبدأ بالحديث عن فرعون وجنده لأنه هو الذى أوحى بفكرة الكتاب . وبين يدى هذا الأمر الخطير نرى لزاما علينا أن نشرح بعضا من العوامل التى كانت- وتكون- سببا فى هدم كيان الأمم وضياع أمرها وذهاب ريحها واضمحلال شأنها وجعلها أثرا

بعد عين وهو أمر كثر حديث القرآن عنه حين يعرض البيان حال الأمم التى وقفت عصية عنيدة أمام الهداة والمصلحين وسخرت من المرسلين إليها وما أشبه الليلة بالبارحة فإن الأمة الاسلامية فى العهد الحاضر قد تفشت فيها عوامل قاتلة ودعوات هدامة نرجو أن تتغلب عليها وأن تخرج من إسارها سليمة من كل عيب مبرأة من كل ضعف وهذه هى الأسباب والعوامل التى تهزم كل قوة وتبعثر كل جماعة .

معاول الهدم والهلاك

أولا : انحلال أفراد الأمة وتفرقهم وعدم تمسكهم بالهدف الواحد والمبدأ القويم وهذا الداء هو جرثومة الشر الذى يصيب الأمة فى مقتلها لأنها- والحالة هذه- لن تنتفع بإرشاد أو توجيه ولن تعرف طريق الاصلاح أو تهتدى إليه: اختلطت عليها المفاهيم والأفكار ففسدت أذواقها واضطربت أعمالها فساءت معيشتها والتوت بها سبل الحياة، والقرآن الكريم قد حذر من هذا الأمر كثيرا: حذر من الأعداء الذين يوسوسون بالشر ويزينون الباطل وأمر بالوقوف صفا واحدا أمامهم قال تعالى : "يأأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا. وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا"[(١)]. وحذر من التفرق والتقاطع والتدابر والتناحر والتخاصم وكل ما شأنه أن يضعف شوكة الأمة قال تعالى: "ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم"[(٢)] وقال تعالى: "إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون"[(٣)] وأمر بالاعتصام بحبل الله المتين والتكتل حول هدف واحد كما قال عز شأنه: "واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا"[(٤)]. عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله

---

(١) سورة النساء: ٧١ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٥ .
(٣) سورة الأنعام : ١٥٩ .
(٤) سورة آل عمران : ١٠٣ .

صلى الله عليه وسلم قال : إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا وأن تناصحوا من ولاة الله أمركم ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال . رواه مسلم . وأمر بطاعة الله ورسوله والعودة السريعة إلى أمره وهداه "ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلاوأنتم مسلمون"[1] قال ابن ابى حاتم : عن عبد الله بن مسعود - (اتقوا الله حق تقاته) قال : أن يطاع فلايعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر) - وهذا من أجل رقيها وسعادتها ورفعة شأنها ورفاهة الحياة على أرضها .

ثانيا : ويأتى المعول الثانى الذى يصيب الأمة فى مقتل وهو داء عضال يستعصى على العلاج إن لم يتدارك الأمة ابناؤها المفكرون وأهل الرأى فيها : هذا الداء هو تأخر الأغنياء وأهل اليسار فى الأمة عن واجب البذل والفداء والعطاء وقسوة قلوبهم وتناسيهم هذا الواجب العظيم وعدم الشعور بحاجة الأمة إليهم فإذا فعل أبناء الأمة ذلك فقد تعثرت خطاها ولم تجد من يأخذ بيدها إلى نواحى الخير والتقدم فتتعطل مشاريع البناء والعمران فيها وقد أرشد القرآن أهل الثراء إلى ماينبغى أن يكونوا عليه من بذل وعطاء وانفاق فى وجوه الخير الكثيرة التى تعود على الأمة بالنفع الكثير قال تعالى : "ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ماكسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد"[2] دعوة كريمة هادئة وديعة إلى الوضع الذى يكون عليه الانفاق من أجل صالح الأمة وإسعاد أبنائها وطوائفها قال ابن عباس : أمرهم بالانفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيه" وروى الامام احمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وان

---

(١) ســورة آل عمران : ١٠٢ .	(٢) ســورة البقــرة : ٢٦٧ .

الله يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولايعطى الدين إلا لمن أحب . فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه . والذى نفسى بيده لايسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولايؤمن حتى يأمن جاره بوائقه . قالوا : ومابوائقه يانبى الله ؟ قال : غشمه وظلمه ولايكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولايتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لايمحو السئ بالسئ ولكن يمحو السئ بالحسن إن الخبيث لايمحو الخبيث" . وقال تعالى : " ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات مارزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون"[١] .

ثالثا : والثالث من عوامل التدمير والتخريب للأمة هو انخداع ابنائها بما يظهره الأعداء من مودة وصداقة والاعتقاد فى صدق هؤلاء الأعداء وإخلاصهم ثم عدم الدراية بمكر هؤلاءالأعداء وعدم معرفة أساليبهم الخبيثة فى التآمر والكيد فليعلم وليفهم أنهم أعداء أولا وأخيرا وسيبقوا أعداء على مر السنين والأجيال ولم يكونوا إلا كذلك "ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير"[٢] .

ورد فى كتب التفسير فى سبب نزول هذه الآيات وفى كتب السيرة والتاريخ عند الكلام عن غزوة فتح مكة أن حاطب بن أبى بلتعة كتب كتابا إلى كفار مكة يخبرهم فيه بخروج رسول الله إليهم يوم الفتح لترشد المسلمين عامة إلى مايجب أن يكونوا عليه من حذر ويقظة واستعداد [٣] .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٤ . (٢) سورة الممتحنة : ١ .

(٣) فى كتاب "الوصايا فى القرآن الكريم للمؤلف شرح مفصل لهذا العامل والذى يليه (قضية الولاء) .

رابعا : ورابع هذه الأمور التى تسارع بالقضاء على الأمة هو السكوت على فعل الفحشاء والمنكر فى المجتمع ومايستتبعه من آثام ومعاص ومخالفات ثم لايوجد من الناس من يدفعه وينكره وينبه الناس على خطورته وبأسه . فإذا وجد فى صفوف المجتمع وبين طوائفه من يمارس الآثام ويفعل المنكرات ويجاهر بالعصيان دون نكير فاعلم أنها بداية النهاية والله تعالى يقول : "يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا"(١) وقال تعالى : "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"(٢) .

خامسا : وتمثل فى ضعف الفكر والتقليد الأعمى لكل ماهو وافد وخور النفس والذلة والرضا بالدون من المعيشة وعدم الوعى بما يدور حولها - الأمة- من أفكار هدامة ومبادئ وافدة وقبول كل مايشاع من إشاعات وأراجيف يقوم بها الغير ومايروجه من أكاذيب وذلك شرما تبلى به أمة ويصاب به مجتمع وحينئذ لاتجتمع الأمة على رأى ولاتعرف لها هدفا ولاتدرى لها غاية بل تظل - هكذا - نهبا لكل فرية وفريسة لكل إشاعة وقد نبهنا القرآن الى خطورة هذا الأمر فى آية كريمة "يأأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير"(٣) .

سادسا : وأخيرا .... مايصيب المجتمع من عوامل الضعف والوهن وغير ذلك من أخلاق الهلع والجزع واليأس من الاصلاح وتخاذل العزائم وانصراف الناس كل على هواه وعدم الولاء للوطن الواحد ولاعاصم للمجتمع- فى هذه الحالة- سوى الاعتصام بخلق الصبر واللجوء إلى شاطئ الأمان والطاعة وبذلك يصلب عودة ولاتلين قناته قال الله تعالى : "يأأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا

---

(١) سـورة النسـاء : ١٣٥ . (٢) سورة هـود : ١١٧ . (٣) سـورة آل عمران : ١٥٦ .

الله لعلكم تفلحون"[1] قال الحسن البصرى رحمه الله : أمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم وهو الاسلام فلايدعوه لسراء ولالضراء ولالشدة ولالرخاء حتى يموتوا مسلمين وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم" .

هذه عوامل نراها أدواء فتاكة تنخر فى عظام الأمة وتهد جسمها وتهدم بنيانها وتجعلها تابعة ذليلة مهينة بين الأمم وهى كما رأينا وفى رأى غيرنا من الباحثين كفيلة وحدها ، وهى ومعها غيرها زيادة عليها أو بعضا منها فى رأى فريق آخر : هى وحدها أو معها غيرها أو بعضا منها كفيلة بأن تهد كيانا شامخا وصرحا مشيدا وحضارة ساحقة وفى كل ذلك مدكر لقوم يعلمون .

سبيل الخلاص من هلاك الذنوب

سبق القول بأن الانسان إذا أذنب ذنبا فالواجب عليه أن يعود سريعا إلى ربه ولايغتر بحلم الله عليه. وعفوه عنه إذا تركه وستر عليه فقد يكون ذلك فرصة لمتاب أو استدراجا لهلاك: على كل حال علم ذلك عند ربى سبحانه وتعالى. فما الواجب على الانسان عندئذ؟ هل يبقى على عوج نفسه ونسيان ربه أسير شهواته وسجين غروره ولذاته؟ أم أنه يسارع بإحداث توبة تقيله من عثرته وترفعه من وهدته؟

وتسعفنا آيات القرآن بالجواب هكذا كما يقول ربنا عز شأنه "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون"[2] قال الحسن البصرى رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن ويشير إلى ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا - قال أبو شهاب بيده فوق أنفه - .... رواه البخارى عن عبد الله بن مسعود موقوفا .

من أجل ذلك وجب على الانسان أن يلج باب القبول والانابة وهو مفتوح دائما

(١) ســـورة آل عمران : ٢٠٠ . (٢) ســـورة الأعـــراف : ٩٦ .

على مصراعيه وفى آيات القرآن مايشجع على ذلك ويحث الناس على الإسراع إلى الدخول إلى ساحة الرضوان "قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون"[1] وقال تعالى : "ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما"[2] وعن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال فى هذه الآية : أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته فمن أذنب ذنبا صغيرا كان أو كبيرا (ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال .رواه ابن جرير

الهلاك والخراب بعد البلاغ والإنذار

بقيت كلمة أخيرة فى هذه المسألة تتعلق بالآية الكريمة : "من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولاتزروازرة وزر أخرى وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا"[3] فإن الانسان بسلوكه يحدد مصير نفسه فإن من اتبع الحق واهتدى فعاقبة ذلك سعادة وهناء لنفسه ومن مال عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد فعاقبة ذلك وبال وشقاء على نفسه ولن يضر الآخرين منه شئ كما قال سبحانه وتعالى : "وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شئ ولو كان ذا قربى"[4] قال عكرمة فى قوله تعالى : "وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شئ ...." هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب سل هذا : لم كان يغلق بابه دونى وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له : يامؤمن إن لى عندك يدا قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا ؟ وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو فى النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يابنى أى والد كنت لك ؟ فيثنى خيرا فيقول له : يابنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من

---

(١) سورة الزمر : ٥٣ .
(٢) سورة النساء : ١١٠ .
(٣) سورة الإسراء : ١٥ .
(٤) سورة فاطر : ١٨ .

حسناتك أنجو بها مما ترى فيقول له ولده : ياأبت ما أيسر ماطلبت ولكننى أتخوف مثل ماتتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ثم يتعلق بزوجته فيقول : يافلانه - أو يا هذه - أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لى لعلى أنجو بها مما ترين قال : فتقول : ماأيسر ما طلبت . ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا إنى أتخوف مثل الذى تتخوف يقول الله: "وإن تدع مثقلة إلى حملها" الآية ، ويقول الله : "لايجزى والد عن ولده ولامولود هو جاز عن والده شيئا" ويقول تعالى : "يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه" رواه ابن أبى حاتم رحمه الله .

فكان من رحمة الله تعالى أنه لايعاقب إلا بعد اقامة الحجة وإرسال الرسل وذلك ما أشارت إليه آيات أخرى مع هذه الآية قال تعالى : "وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير"(١) وقال عز شأنه : وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين"(٢) وقال تعالى : "كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شئ إن أنتم إلا فى ضلال كبير"(٣) قال الامام احمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عم عمرو بن مرة عن أبى البخترى الطائى قال : أخبرنى من سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم وفى حديث آخر : "لايدخل أحد النار الا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة .

ولكن على الرغم من وضوح هذه الأدلة والبراهين التى تنذر وتحذر من عقبى العصيان والظلم والفسوق الذى شاع بين الناس فإننا نراهم يستهينون بالمعاصى ويستمرئون حياة الجبروت والطغيان والتعدى على حرمات الله . ومن طول إلفهم

(١) سورة فاطر : ٣٧ . (٢) سورة الزمر : ٧١ . (٣) سورة الملك : ١٢.

لهذا العوج والانحراف صاروا يجاهرون بالذنب دون حياء أو خجل ، روى الترمذى عن أبى هريرة رضى اله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج فى آخر الزمان قوم يختلون الدنيا بالدين ويلبسون للناس مسوح الضأن من اللين ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل : "أبى يغترون؟ أم على الله يجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثن أولئك فتنة تدع الحليم حيران" وذكر إبن أبى الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : قال على : يأتى على الناس زمان لايبقى من الاسلام إلا إسمه ولا من القرآن إلا رسمه مساجدهم يومئذ عامرة وهى خراب من الهدى .. علماؤهم شر من تحت أديم السماء منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه «إذا ظهر الربا والزنا فى قرية أذن الله عز وجل بهلاكها » وذكر الامام أحمد رحمه الله عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « توشك القرى أن تخرب وهى عامرة ؟ قال : إذا علا فجارها على أبرارها وساد القبيلة منافقوها » وذكر الأوزاعى رحمه الله عن حسن بن عطية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «سيظهر شرار أمتى على خيارها حتى يستخفى المؤمن فيهم كما يستخفى المنافق فينا » .

النتيجة الحتمية

والآن !!! مع النهاية المؤسفة .... مع النتيجة التى لابد منها ... مع المصير المحتوم لكل متكبر جبار كفار لنعم الله عنيد ظالم لعباد الله كى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ... هى نهاية متوقعة .. ونتيجة صادقة .. يتوقعها كل ذى قلب سليم ويدركها كل ذى عقل مستنير يعرف سنة الله فى خلقه "فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون".

وسنسوق مجموعة من الأمثلة عن تاريخ الأمم السابقة التى سادت على الأرض ولعبت دورا كبيرا من الحضارة الانسانية ثم أكلتها ذنوبها وأهلكتها انحرافاتها حتى لم تبق منها شيئا سوى حديث التاريخ عنها وسيكون المثل الأول الذى نبدأ بالكلام عنه هو حديث القرآن عن فرعون وقومه لأنهم هم الذين أوحوا بتأليف هذا الكتاب.....

- ١ -

قال الله تعالى :

"ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون" .

"وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ... فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين" .

الأعراف : ١٣٠ - ١٣٢ - ١٣٥

"فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لاينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين" .

القصص : ٤٠ - ٤١ - ٤٢

هذه الايات الكريمة وغيرها شرحت قصة فرعون وهامان وقارون والجنود وغيرهم من الطغاة والجبابرة وقصة فرعون قصة مثيرة مضحكة ومبكية فى وقت واحد لاتملك - بعد أن تفرغ من قراءتها فى السور والآيات التى تعرضت لها مطولة ومختصرة - إلا أن تعجب العجب كله . فأنت أمام نفس غريبة الأطوار وعقل لايمكن أن يوصف بأنه عقل مفكر يزن الأمور ويضعها فى نصابها وماذا بعد أن

يقنع نفسه بنفسه بجهل الناس وعدم معرفتهم ؟ ماذا بعد أن يضرب على الرعية غباء كثيفا وطمسا لفكرها وعقلها ؟ كما قال عز شأنه : وقال فرعون : "ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى"[1] وقال تعالى : "قال فرعون : "ماأريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد"[2] وقال سبحانه : "فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى"[3] وسار فى هذه السياسة حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر .

كما قلت من قبل : إنها قصة مثيرة مضحكة مبكية فى وقت واحد تحمل فى طياتها كثيرا من الدروس والعبر لو أحسن الناس التأمل فيها والانتفاع بدروسها وعبرها ومازالت ماثلة أمام الأذهان بهذه الدروس والعبر : إنها تقول لكل طاغية باغ متكبر عدوانى يستهين بالعقول ويستعلى على الناس على رسلك أيها الطاغية فإنك ترسم لنفسك بهذا السلوك الأخرق نهايتك المؤسفة المهلكة وهى النهاية التى تنتظر كل الطغاة والجبارين والمتكبرين وهى نهاية حتمية لحياة الجبروت والطغيان حتى تهدأ حياة الناس ويتنسموا أنسام الهدوء والراحة ويعيشوا آمنين مطمئنين بعد أن طهر المجتمع من هذا الاستعلاء والظلم .

نشأ فرعون كما ينشأ الطغاة شريرا عدوانيا صغيرا ثم أخذ يكبر وتكبر معه طبيعته الآثمة غير أن الفجار يختلفون عن غيرهم فى النشأة والتربية . فإن البيئة والأصدقاء وظروف المجتمع كل ذلك له دخل كبير فى تقويم حياة الانسان واعداده للحياة ويضاف الى ذلك عامل على جانب كبير من الأهمية هو نفسية الانسان وطبعه الذى طبع عليه . وقد كان فرعون يحمل بين جنبيه كثيرا من خصائص النفس العدوانية الشريرة لذلك نراه حين سنحت له فرصة التملك والسلطة صار يتصرف تصرف المتكبرين ويسلك سلوك الاشرار الآثمين وساعده على ذلك خنوع الشعب الذى تسلط عليه فاستبد بأمره فلم يسمع عن هذا الشعب أنه عارض الطاغية أو رد له رأيا أو وقف دون مشيئته وقد عبر القرآن عن ذلك فقال تعالى:

---

(١٢) سورة القصص : ٢٨ . (٢)سورة غافر : ٢٩ . (٣) سورة النازعات :

"فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين" قال العلماء : استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له وهذا دليل على أنه بلغ درجة كبيرة من العتو والكفر وكذلك كان القوم من الضعف والخور والهوان ومن أجل ذلك كانوا فاسقين .

ولقد كان من ثمرات هذا الفجور والاثم والعدوان والعناد أن جمع قومه ونادى فيهم متبجحا بملك مصر قال تعالى : "ونادى فرعون فى قومه قال : ياقوم ! أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون"(١) .

وكان من ثمراته - أيضا - أن استضعف الرعية وطغى على بنى اسرائيل فصار يقتل ابناءهم ويستحى نساءهم ويسخر رجالهم فى أحقر الأعمال وأقبح الحرف حتى جأروا بالشكوى الى الله عز وجل ان يخلصهم من هذا العذاب والهوان : ملك طاغية باغ يدعى الألوهية ويكفر بكل خير وحق ويعتدى على الحرمات لابد من وعظه وارشاده وانقاذ الشعب من ظلمه وجبروته .

أفاض القرآن فى هذا إفاضة ملحوظة لما لها من الأهمية ولخطورتها وفظاعتها التى وصلت إليها وقد حمى وطيس هذه المسألة إلى درجة كبيرة حتى وصلت إلى حد الغليان وحفلت بالأدوار والوقفات التى كانت بين موسى وفرعون : موسى الذى ربى فى قصر الملك لتتم به المعجزة فيصنعه الله على عينه فى هذا المكان ويكون هلاك الطغيان على يده ."فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا"، وفرعون الذى يريد الا ينازعه أحد فى رأيه ومشيئته : موسى الذى يريد أن يبلغ رسالة ربه وأن يأخذ شعب اسرائيل ويخرج من مصر ، وفرعون الذى يريد أن يصفى هذا الشعب ويخلص منه ولم نجد من بطانته وحاشيته من يصده عن هذا العبث والشر بل كانوا على العكس من ذلك : حرضوه على الشر وساعدوه على الباطل وأوغروا صدره على هؤلاء المستضعفين "وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال : سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون"(٢) .

---

(١) سورة الزخرف : ٥١ .

(٢) سورة الأعراف : ١٢٧ .

وبدأ الصراع بين موسى والطاغية: يتقدم موسى بالرسالة التى جاء بها من عند الله مؤيدة بأدلتها التى تدل على صدقها وبالبراهين التى تدفع المكذبين بها، وفرعون يكذب ويرفض أن يكون موسى- ربيب قصره- رسولا يعظه ويرشده ولايرضى له أن يعيب سياسته للدولة ولا أن يخرج على إرادته ومشيئته ولا أن يكذب بألوهيته "وقال فرعون: ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون"[1].

والآن !! وصل الكفر إلى ذروته وبلغ السيل الربى ولم يبق للارشاد موضع : وماذا بعد أن يذبح الأبناء ويستحى النساء ويساق الرجال إلى أعمال السخرة والمشقة ؟ ماذا بعد أن تدعى الألوهية وتصبح نظام دولة وأساس حكم . ثم تفرض على الناس بقوة الحديد والنار .

وقد وصلت الفرعونية إلى هذا الحد من العناد والتصدى لدعوة الإصلاح والهداية ومشاقة الله ورسوله ورفض الطاعة والانصياع لداعى الحق والصواب ، كان لابد من ضرب على أيدى هؤلاء العتاة من أجل أن يعودوا إلى صوابهم ويلزموا طريق الرشاد ، كان لابد من نذر قوية تردع المجرم وتنبه الأتباع إلى مايتعرضون له من محق وهلكة وتخريب لمعيشتهم وتدمير للحياة الآمنة ولكن دون جدوى فما تنزل بهم جائحة أو بلوى حتى يهرعوا إلى موسى أن يرفع عنهم مانزل بهم من كوارث .

أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون يساعده فى هذه الرسالة أخوه هارون وحمل موسى الرسالة إلى فرعون ودعاه إلى عبادة الله رب العالمين وترك هذه الدعوة الخبيثة - ادعاء الألوهية - والافراج عن شعب اسرائيل الذى أرهقه واستند له وساق له من الأدلة والبراهين مايؤيد صدق دعواه ولكن فرعون أصر على عناده وكبريائه واتهمه بالسحر والافساد فى الأرض "وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك" وقال تعالى : " قالوا ياموسى

(١) سـورة القصص : ٣٩ .

ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل"[1] .

استمر موسى يدعوا الطاغية إلى عبادة الله رب العالمين وترك ما يفعله من جبروت مع بنى اسرائيل ونسوق موقفا من مواقف الدعوة الساخنة تحمله الينا مجموعة من آيات القرآن من سورة الشعراء فصورته أروع تصوير "قال فرعون : ومارب العالمين ؟ قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين"[2] .

واستمرت السورة تشرح وتوضح بقية الجولة حتى النهاية .

فرعون يصر على غرورة واستعلائه واتهام موسى بالسحر والشعوذة وموسى يصر على موقفه لأنه أمر من عند الله ورسالة أمر بتبليغها ولايصح تركه ولا التخلى عنه .

ويمعن فرعون فى كفره وعناده ويرفض دواعى الإيمان وبراهين الهدى متأبيا على النذر الالهية التى بدأت بهزيمة سحرته أمام علامة الايمان ومعجزة موسى وهى العصا التى ابتلعت ما ألقاه السحرة من الحبال والعصى ومن عجب أن الملأ من قومه راضون عن كفره مطمئنون إلى عمله طامعون فى عطائه ورفده "ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود"[3] .

وقد طف الصاع وضجت الأرض والسماء من كفر هؤلاء المجرمين وآثامهم ولن يكون الكون - أبدا - ملكا للإجرام والمجرمين يسرحون ويمرحون فى جنباته ويتصرفون فيه دون حياء أو خجل من خالقه ولن يقف صاحب الدعوة - موسى -

---

(١) سورة الأعراف . (٢) سورة الشعراء : ٢٨ . (٣) سورة هود : ٩٧ .

مكتوف اليد أمام هذا الصلف والاستعلاء وإنما يجب عليه أن يعمل ... أن يبحث وينقب ... أن ينهض بالدعوة ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وعظهم فلم ينفع الوعظ معهم وأنذرهم فما أفادت النذر وحذرهم من غضب الله فاتهموه في عقله وعمله فلم يبق له معهم إلا أن يستمطر عليهم اللعنات ويستعجل لهم العذاب "وقال موسى: ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يرواالعذاب الأليم"[١] أمن هارون على دعاء أخيه حين دعا على فرعون وملئه غضبا لله ولدينه فقد تبين له بعد طول المدة التي قضاها بينهم يدعوهم إلى توحيد الله أنه لاخير فيهم ولن يكون منهم هداية ورشاد وكذلك فعل نوح عليه السلام مع قومه بعد لبثه فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما إذ دعا عليهم فقال: "رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا"[٢] ولهذا استجاب الله لموسى وأخيه عليهما السلام دعاءهما على القوم المجرمين فقال تعالى: "قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون" استجاب الله لموسى وأخيه كما استجاب لنوح من قبل، وكانت الاستجابة الالهية لهؤلاء الرسل ماتحدث عنه القرآن وأخبر به: إغراق وتدمير.. نهاية عصيبة.. قضاء مبرم.. لا أسف عليهم ولارحمة بهم.. جعلهم عبرة ومثلا للآخرين.. هكذا !! فعل بهم ورحلوا من الدنيا يوم رحلوا عنها تشيعهم اللعنات.. رحلوا غير مأسوف عليهم كما قال تعالى: في قوم نوح : "ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. رفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر"[٣] وقال تعالى:- في قوم موسى- "فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين"[٤] قال محمد بن على بن الحسين: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة- قد أجيبت دعوتكما- أربعين يوما وقيل: مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة والله أعلم.

---

(١) يونس : ٨٨ . (٢) نوح : ٢٦ . (٣) القمر : ١٣ . (٤) الأعراف : ١٣٦ .

ولقد كان ما كان من حكم الله فى هؤلاء المجرمين الجبارين المتكبرين على أمر ربهم الذى خلقهم ورزقهم إذ أخذهم بالقوة الشديدة جزاء لهم على مافعلوا من إجرام وقبح وتصور آيات من سورة الأعراف ما أنزله الله بهم من لعنات وماابتلاهم به من نكبات قال تعالى : "ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون" ... "وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين" أرأيت إلى هذا العقاب الشديد العظيم الأليم الذى أحاط بهم من كل جانب ، فى المأكل والمشرب والمسكن والملبس ، فى نومهم ويقظتهم ، فى صبحهم ومسائهم : إنه قلق وشدة ، بؤس ونكد ، كدر وكرب : ولنأخذ فى بيان أنواع هذا العقاب الذى أصاب آل فرعون : -

أ - سنون الجدب : بدأ القرآن بذكر ما أنزله الله تعالى بفرعون وبقومه من ألوان المحن وأنواع العذاب حالا بعد حال إلى أن وصل الأمر فى النهاية إلى الهلاك الكامل والتدمير الشامل حتى ينزجر الطغاة عن طغيانهم ويبتعدوا عن أسباب الكفر والعصيان خوفا من أن ينزل بهم مثل مانزل بغيرهم حين تجاوزوا حدود الله فاستحلوا ما حرم وارتكبوا مانهى عنه . والسنون : جمع سنة وهى تشمل معنيين : أولا . العام والحول ... القطعة من الزمن التى تشتمل على مجموعة الشهور التى تؤلفها وهى اثنا عشر شهرا ، وثانيا : والمعنى الثانى - وهو المراد هنا - يراد بالسنون : الجدب والإمحال . من أجدب المكان وأمحل اصابه الجفاف فليس فيه زرع ولاثمر ويعنى ذلك : أن الذى حدث لآل فرعون ، انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ .. وكل هذه المعانى تدل على خلاف الخصب والنماء والخير الوفير والرزق الواسع ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : - يدعو على قريش - اللهم اجعلها عليهم سنينا كسنين يوسف) يقال : أسنتوا كما يقال أجدبوا ، قال الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لأهله ورجال مكة مسنتون عجاف

وعلى هذا المعنى قال المفسرون : أخذنا آل فرعون بالسنين : يريد القحط والجوع والجفاف عاما بعد عام لعل فى ذلك ردعا للمجرم وزجرا للكافر .

ب - نقص الثمرات : كان هذا النقص هو التحذير الثانى الذى ينبغى أن تتفطن له الفئة الباغية الكافرة : فرعون وملؤه : فإن نقص الثمرات فى أرض الخضرة الناضرة والتى لايغيب عنها الخير والحب الوفير ظاهرة تلفت النظر أن هناك خطرا داهما وعقابا صارما لابد من التوقف عنده ثم دراسته والتفكر فيه من قبل أن ينزل ما لاقبل لهم به : نقص الثمرات فى أرض مصر المعطاء كثيرة الزرع من كل نوع : أرض مصر التى أعطت المنطقة كلها من خيرها وثمراتها ماهى محتاجة إليه ... أرض مصر التى لم تبخل أبدا أن تمد يد العون فى أوقات الشدة والأزمات فى قديم الزمان وما تزال ... أرض مصر الغنية ... المنبع الفياض هى الآن تجدب وتمحل وتنكر خيرها ويتهدد أصحابها الذين يعيشون فوقها جفاف الأرض منذرا بالفقر وسوء الحياة دون أن يتنبهوا لما يحدق بهم من خطر الجوع والقحط والبلاء والكربات ... إنهم لايريدون أن يعرفوا أن هناك علاقة وثيقة بين ماهم فيه من قحط وبلاء وبين ماهم عاكفون عليه من فسوق وجحود ونكران وكفر .. لايريدون أن يعرفوا سنة الله فى خلقه وهى - أبدا - غالبة ولن تجد لها تحويلا "لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد"[1] .

ج - الطوفان : وكان من عقاب هؤلاء القوم الكافرين ما أنزله الله عليهم من الطوفان الذى أغرقهم ولم يستطيعوا الخلاص منه ، فى مختار الصحاح : والطوفان المطر الغالب والماء الغالب يغشى كل شئ ، قال الله تعالى : "فأخذهم الطوفان وهم ظالمون" ص ٤٠٠ ، وربما كان هذا هو المعنى المراد - والله أعلم - من قوله تعالى : "فأرسلنا عليهم الطوفان" قال ابن عباس فى رواية عنه : "كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار وبه قال غيره من العلماء وهناك روايات أخرى فى بيان هذا الطوفان ، ففى رواية أخرى عن ابن عباس : هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ

---

(١) سورة ابراهيم : ٧٠ .

"فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون" وسواء صح أن يكون الطوفان مطرا غزيرا أوماء غالبا أو كان أمرا من تقدير الله جرى عليهم من حيث لايشعرون ، سواء صح هذا أو ذاك أو كان غير هذا أو ذاك فإن الله سبحانه وتعالى قد حول حال القوم من سعادة ورفاهة عيش إلى سوء حال وضيق فى المعيشة وإذا كنا هنا على أرض مصر نعانى كثيرا من المعاناة إذا كثر المطر شيئا ماحيث تتحول الأرض إلى مزلقة لايثبت عليها قدم ويسرع التلف الى ماعليها من زرع أو نبات إذا كان ذلك يحدث لنا فى عهدنا الحاضر مع تقدم وسائل الحياة الاجتماعية فإن ما كان يحدث فى الأزمان الغابرة كان متعبا حقا وإذا عرفنا أن ذلك كان لعذاب وإهلاك أدركنا أى عذاب كان وأى إهلاك حدث ومن أجل ذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو عند نزول المطر "اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الظراب والآكام وبطون الأودية ...."

د - الجراد : وهذه هى آفة الآفات ومشكلة المشكلات والداء الذى لايقدر على دفعه بشر هل تتذكر أيها القارئ مانزل بزرعنا فى السبعينات وفى الثمانينات من إهلاك . فى السبعينات كانت آفة العصافير بهذه المجموعات الرهيبة والتكاثر الذى يؤذن بوقوع كارثة مهلكة حتى باتت هذه المجموعات - وما زالت - تهدد المحصول ولم يعد هناك مايشغل بال الزراع سوى هذا الطائر الضعيف الذى يتكاثر تكاثرا كبيرا مخيفا ، وفى الثمانينات كانت الآفة الجائحة العاتية التى أقضت مضاجعنا وجعلتنا نجند كل الخبرات ونستورد المبيدات ، كانت هذه الآفة هى : هذا الحيوان القذر الخبيث الذى تتقزز منه النفس وهى الفئران التى توالدت وتكاثرت تكاثر الدود حتى غزت كل حقل وهددت كل محصول والتى أشيع عنها من الحكايات والقصص مايشبه الأساطير هنا وهناك حول كثرتها وخطورتها ، فمن قائل يقول : إن الفأر قد هدد القط ومن قائل يقول : إن فأرا أكل طفلا بدأ بأكل بطنه ومن قائل يقول : إن نوعا من الفئران فمه مستطيل يشبه فم التمساح وغير ذلك مما سمعناه فى حينه وطلعت علينا به الاحصاءات التى فاقت الخيال كثرة وخطورة .

لاغرابة - إذن - أن يسلط الله على هؤلاء المجرمين "فرعون وملئه" طائرا

صغيرا يقضى عليهم - على أمنهم وراحتهم - وهم الكفرة الفجرة الذين اغتروا بقوتهم وأهانوا عباد الله بسلطانهم ، وقد وقفوا أمام هذا الطائر الضعيف مكتوفى الأيدى لايستطيعون أن يفعلوا به شيئا ولا أن يملكوا له دفعا سوى أن يستنجدوا بموسى أن يدعو ربه بكشف الداء عنهم قال العلماء : وأما الجراد : فمعروف مشهور وهو مأكول لما روى عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «أحلت لنا ميتتان ودمان ، أما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال» رواه أحمد والشافعى وابن ماجة . فكان الجراد على ماروى مع قوم فرعون زجرا وعذابا وإرهاقا وإعناتا وإذلالا وإهلاكا وأكل محاصيلهم وأتلف الزروع والثمرات . روى الحافظ بن عساكر عن عطاء عن عبد الله بن عباس قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايأكل الجراد ولا الكلوتين ولا الضب من غير أن يحرمها : أما الجراد فزجر وعذاب وأما الكلوتان فلقربهما من البول وأما الضب فقال : أتخوف أن يكون مسخا» وكان الجراد - ومايزال - مصدر رعب وفزع تهتز النفوس وترتجف القلوب بمجرد أن تسمع عن ظهوره رغم ما اخترع فى العصور الحديثة من وسائل لمكافحته والتخلص منه فيكتب الكتاب ويؤرخ المؤرخون ويتحدث الشعراء عن ظهوره فى عام كذا وما كان له من آثار ضارة . وهذه أبيات يتحدث فيها السيد على الدرويش المتوفى فى عام ١٢٧٠ هـ عن الجراد وفيها يصور الرعب الذى ينتاب المجتمع حين تظهر هذه الآفة الخطيرة قال رحمه الله تعالى :

ياصاح : ماهذا الخبر ؟	قال : الجراد هنا ظهر !
قلت : الجراد ! فقال : إى	تدرى الجراد إذا ابتدر ؟
قلت : استعذ بالله قا	ل : وهل من المقضى مفر ؟
ما كان قط بخاطر	فى خاطرى هذا الخبر

● ● ●

أو ما سمعت مقالهم : «مثل الجراد إذا انتشر»
فترى الجراد على الجريـ ـد مكللا مثل الثمر
رُقْشٌ تراها أنها نار تلظت بالشجر
لواحة للأرض ، لا تبقى النبات ولا تذر
وصغيرة فى حجمها لكنها إحدى الكبر
الأرض كانت جنة فالآن ترمى بالشرر
نزل الجراد بها كما نزل القضاء أو القدر
مُتَنَشِّرٌ رجلاه منـ شار فكم شئ نشر
متبدد يرعى النبا ت وليس يعيبه سفر
بالليل يُكْفَر بالنبا ت فإن بدا فجر فجر

وفى كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للعلامة «الدميرى» والجرادة تكنى أم عوف، قال أبو عطاد السندى عن الجرادة :

وما صفراء تكنى أم عوف
كأن رجيلتيها منجلان

اتضح من هذا البحث أنه ليس فى الحيوان اكثر إفسادا لما يقتاته الانسان من الجراد ، قال الأصمعى : أتيت البادية فإذا أعرابى زرع برا له فلما قام على سوقه وجاد سنبله أتاه رجل جراد فجعل الرجل ينظر اليه ولايدرى كيف الحيلة فيه فأنشأ يقول :

مر الجراد على زرعى فقلت له :
لا تأكلنّ ولا تشغل بإفساد
فقال منهم خطيب فوق سنبلة
إنا على سفر لابد من زاد

وقيل لأعرابى: ألك زرع ؟ قال : نعم ولكن أتانا رجل من جراد بمثل مناجل

الحصاد ، فسبحان من يهلك القوى الأكول بالضعيف المأكول .

إذا علمت هذا أيها القارى أدركت أى بلاء نزل بفرعون وجنده المجرمين عقابا لهم على ما اقترفوا من آثام وسيئات وأدركت أن لله جنودا لايعلم عددها إلا هو سبحانه وتعالى كما قال عز شأنه : "ولله جنود السموات والأرض" ، "وما يعلم جنود ربك إلا هو" وكذلك فعل بجند أبرهة الأشرم الحبشى حين أراد أن يهدم الكعبة المشرفة عبرة ومثلا للطغاة من بعدهم "وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأمول" .

هـ - القمل : وهذا هو الداء العياء الذى لاقبل للإنسان به وليته داء خفيف حمله تتقبله النفوس ولكنه شئ مقيئ فعلا تتقزز منه النفوس إن دل على شئ فإنما يدل على أن القوم بلغوا درجة كبيرة من الاجرام والفسق حتى عوقبوا بأمر لم يعاقب به شعب من قبل وماذا بعد أن تسكن هذه الحشرة القذرة بين ثنايا ثيابهم وتصل الى منابت شعرهم وربما كان هذا المعنى هو الظاهر من كلمة قمل وأنا إليه أميل لأن المقام يستدعيه فهو فى حقيقة الأمر : عذاب ... قلق .. ضيق .. قرأ الحسن - والقمل - بفتح القاف وسكون الميم يريد القمل المعروف ... نقول : وهو - أيضا - أحد معنيين للفظ ، أما المعنى الثانى فهو : أن القمل هو السوس سلطه الله تعالى على الحبوب بعد درسها وحفظها فأتلفها فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة - الجريب مكيال معروف عندهم وهو مقدار أربعة أقفزة فيكون عشرة أجربة مقدارها أربعون قفيزا - أرأيت إلى هذا العقاب الإلهى: أربعون جريبا لايرجع منها إلا ثلاثة أقفزة أقل من جريب .

هذان المعنيان وقف عندهما العلماء بيانا لكلمة «قمل» فى كتاب «مختار الصحاح» القمل معروف الواحدة قملة والقمل دويبة من جنس القردان إلا أنها أصغر منها ...» ص ٥٥١ وسواء كان هذا أو ذاك مابتلى به آل فرعون فإنه من غير شك كان دلالة غضب وعلامة إهلاك ونذير تدمير إلهى ينتهى به كل شئ وينتصر الحق ويندحر الباطل ، فقد قيل " إن موسى عليه السلام مشى بعصاه إلى كثيب أعفر

مهيل بقرية من قرى مصر تدعى «عين شمس» فضربه بعصاه فانتشر كله قملا فى مصر فتتبع مابقى من حروثهم وأشجارهم ونباتهم فأكله ولحس الأرض وكان يدخل بين ثوب أحدهم وجلده فيعضه وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلئ قملا .

فلم يصابوا ببلاء كان أشد عليهم من ذلك القمل فإنه أخذ بشعورهم وأبشارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم ولزم عيونهم وجلودهم كأنه الجدرى فمنعهم النوم والقرار فصرخوا وصاحوا إلى موسى عليه السلام إنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء فدعا لهم موسى عليه السلام فرفع الله القمل عنهم بعد ما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت .

و - الضفادع : والضفادع هى الأخرى آية من الآيات الدالة على انتقام الله من المكذبين الفجرة - فرعون وملئه - إننا ننظر إلى التاريخ الذى أرخ لهذه الفترة من تاريخ مصر فنجد أنفسنا أمام غضب إلهى على جماعة لاتستحى .. لاتخاف .. أعماها الغرور .. قد وقف موقف المتحدى المعاند : جماعة لاتريد أن تفهم أو تعتبر... لاتريد أن تفكر فيما ينزل بها من نكبات قاتلة أو جائحات مهلكة ولاتستطيع لها دفعا : جماعة تصر من جانبها على العناد واتهام موسى بالسحر بينما الآيات تتوافد وعليها واحدة بعد واحدة وكل واحدة منها تدعوا إلى التأمل واليقظة وطول التفكر والنظر رغم فزعهم إلى موسى - بعد نزولها أن يدعو ربه بانكشافها عنهم ثم يكفروا به فتنزل الأخرى أشد وأعنف وتتكرر المأساة ويطلب العفو مرة أخرى دون حياء كما قال تعالى : "ومانريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون" .

والآن مع هذه الضفادع .. مع نوع آخر من العذاب نزل بهم .. إن واحدة منها كفيلة بأن تقلق جمعا كبيرا من الناس يجلسون بالقرب منها ، فكيف إذا تحول الوضع إلى شئ يؤذن بتعب وهوان وكان عددا كبيرا منها - أى الضفادع - لا يحصيه عد ولا يدخل تحت حساب بشر ويدخل على الناس وهم فى البيوت والحجرات والشوارع والحارات .. يدخل عليهم فى مجالسهم ويتدسس فى ملابسهم.

وكذلك وجد فى أوانى طبخهم وأكلهم وشربهم .. وهكذا !! عم هذا الإرهاق وطم ولم يعد يحتمل وشق عليهم فقد لاحقهم فى كل موضع وساكنهم فى كل مكان .. إنه لأمر يفوق الوصف .. وإن لك أن تقول فى أى نوع من العذاب يرسله الله على ناس ماشئت من قول وإن لك أن تتصور ماشاء لك خيالك .. لكن إذا علمت أنها قدرة الله وقوته فى تأديب الفجرة - والله يعلم قوته فلا يحدها شئ عاد الخيال حقيقة .. وأيقن القلب والعقل أن الله يفعل بالمجرمين مايشاء من ألوان القهر والإذلال والإهانة جزاء إجرامهم وكفاء فسقهم وفجورهم .

ز - الدم : صدق الله ... ومانريهم من آية إلا هى أكبر من أختها .. هيه !!! ماهذا؟ .. إننا أمام آية هى وحدها كفيلة بأن تلفت الأنظار وتوقظ الوسنان وتنبه غفلات القلوب وتجعل الانسان يفكر ويتدبر ويطيل التأمل والتذكر . إننا أمام آية هى فى القوة مثل الآيات السابقة ولقد استدعى الأمر مثل هذه القوة لأن القوم قد بلغوا درجة كبيرة من العتو والاستكبار والخطأ حتى لم يعد يرجى منهم توبة وإنابة وخوف من الله ورجوع إليه فقد مرد القوم على الشقاق والعناد والمخالفة فكان لابد - وقد صار القوم إلى ماصاروا إليه - من مقابلتهم بمثل ذنوبهم عظة وعبرة لغيرهم ليعلم كل جبار أن الله لن يتركه ولن يفلت من قبضته ، وما هو هذا النوع من العذاب ؟

إن الله عز شأنه عذب فرعون وملأه بهذه المجموعة من العذاب عقابا لهم على إجرامهم فكانوا يسرعون إلى موسى أن يدعوا ربه أن يرفع عنهم ما ينزل عليهم منها ويدعو موسى ويستجيب الله له ويرفع عنهم الضر علهم يرجعون له غير أنهم لم يستجيبوا أبدا حتى أرسل الله عليهم "الدم" آية من الآيات ونوعا من العذاب فصير حياتهم مشقة وتعبا وعنتا وإرهاقا ولنترك الحديث للتاريخ يحدثنا عن هذا الأمر الخطير الذى لم يكن للبشرية به عهد : -

أرسل الله على فرعون وملئه الدم فصارت مياههم دما فشكوا إلى فرعون فقال: إنه سحركم فكان يجمع بين القبطى والاسرائيلى على إناء واحد فيكون مايلى

الاسرائيلى ماء ومايلى القبطى دما ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبطى الدم وللإسرائيلى الماء . عن سعيد بن المسيب : سال عليهم النيل دما . وقيل : سلط الله عليهم الرعاف ، وروى أن موسى عليهم السلام مكث فيهم بعد ماغلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات ، وروى أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص الثمرات قال: يارب !! إن عبدك هذا قد علا فى الأرض فخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة ولقومى عظة ولمن بعدى آية . فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان ثم الجراد ثم مابعده من النقم» .

ولقد كان من أمر هذه الآيات الظاهرة التى كانت عذابا لهؤلاء المجرمين أن الله سبحانه وتعالى جعلها آيات مفصلات وعلامات بينات ومعجزات واضحات لايشكل شأنها ولايغيب أمرها على ذى عقل وفهم أنها من آيات الله التى لايقدر على إجرائها غيره وإنها عبرة لهم إن أرادوا الاعتبار وهى نقمة عليهم إن استمروا على كفرهم .

بقيت نقطة أخيرة حول هذا الموضوع : ما شأن هذه الآيات من حيث الترتيب بينها والزمن الذى كان بين كل واحدة منها وبين التى تليها ، هل وقعت على هذا الترتيب ؟ هل كان الزمن بين كل واحدة منها والتى بينها طويل أو قصير ؟ نقول : لايسعنا بعد هذه الجولة فى شرحها وبيانها إلا أن نقول : الله أعلم أى ذلك كان . وسنعرض فيما يلى بعض ماروى حول هذا الأمر ومنه يتضح ماذهبنا إليه . روى ابو جعفر بن جرير الطبرى : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى فرعون قال له : أرسل معى بنى اسرائيل فابى عليه فأرسل الله عليهم الطوفان - وهو المطر - فصب عليهم منه شيئا فخافوا أن يكون عذابا فقالوا لموسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بنى اسرائيل ، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى اسرائيل فأنبت لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزرع والثمر والكلأ فقالوا : هذا ماكنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ فلما رأوا أثره

فى الكلأ عرفوا أنه لايبقى الزرع فقالوا : ياموسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الجراد ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى اسرائيل فداسوا - درسوا - وأحرزوا فى البيوت فقالوا: قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل - وهو السوس الذى يخرج منه - فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها ثلاثة أقفزة فقالوا : ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بنى اسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل فبينا هو جالس عند فرعون ، إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون : ما تلقى أنت وقومك من هذا ، وما عسى أن يكون كيد هذا ؟ فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ويهم أن يتكلم فتثب الضفادع فى فيه فقالوا لموسى : ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فكشف عنهم فلم يؤمنوا فأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار أو ما كان فى أوعيتهم وجدوه دما عبيطا فشكوا إلى فرعون فقالوا : إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال : إنه قد سحركم فقالوا : من أين سحرنا ونحن لانجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا ؟ فأتوه فقالوا : ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى اسرائيل . الطبرى .

وأسدل الستار

دأب فرعون وجنده - كما رأينا على حرب الله عز وجل وتكذيب رسوله موسى ومن عجيب شأنهم أنه إذا وقع بهم المكروه وغشيهم الكرب وأنذروا بالعذاب وضاقت عليهم الأرض بما رحبت يفزعون إلى موسى أن يدعو ربه حتى يرفع عنهم مانزل بهم ويستجيب موسى لسؤالهم ويدعو ربه أن يرفع عنهم الكرب عساهم يستجيبون لدواعى الايمان لكنهم سرعان ما يتمردون على امر الله بعد رفع العناء ويعودون الى التكذيب مرة أخرى كما قال تعالى : "ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل.

فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون" ... إذا هم ينكثون ... أرأيت إلى هذا الإصرار السخيف على معصية الله ونقض العهد الذى وعدوا به موسى أن يؤمنوا به إذا رفع العذاب عنهم وكان هذا من دواعى السخط عليهم من الله أن ينزل العذاب بهم بين حين وآخر ، قال الضحاك عن ابن عباس : كل شئ فى كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب . والعذاب كما هو معروف يأخذ أشكالا مختلفة قال ابن أبى حاتم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم . وقال ابن جرير : عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أسامة زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم .

وإذا كان هذا العذاب الذى تعددت أنواعة وكثرت صورة أنزله الله سبحانه وتعالى بفرعون وملئه نتيجة عصيانهم لله ، واذا كان ذلك هو قانون إلهى فى عقاب المجرمين وسنة من سنن الله فى خلقة لايمكن أن يتخلف عندما يأذن الله فإنه - سبحانه - أنزله باليهود أنفسهم حين عصوا ربهم وتمردوا على نبيهم بعد خروجهم من مصر وقد أهلك لهم فرعون ونجاهم من كيده وذله مما يدل دلالة صادقة على أنه لا محاباة .. لا مجاملة .. لاتهاون فى الفوضى ولاتفريط فى العدل حتى تستقيم الحياة ويتوارى الإجرام والرذيلة ، قال تعالى : "وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون" هؤلاء هم الذين نجاهم الله من كيد فرعون فلق لهم البحر وكفى بها معجزة وتكريما ، ثم اسمع وانظر ماتنطق به الآية ، جماعة خرجهم الله من التيه فى الصحراء وأمرهم أن يدخلوا القرية المقدسة على حالة طيبة منحنين متواضعين شاكرين لله نعماءه طالبين منه أن يحط عنهم خطاياهم ويصفح عن ذنوبهم وسيجدون فى القرية كل خيرات الله وبركاته من الزروع والثمار ، فهل تدرى مافعلوا ؟ تحايلوا على أمر الله وبدلوه بقول آخر فدخلوا من الباب يزحفون على

استاههم وقالوا حبة فى شعرة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : قيل النبى إسرائيل : (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة) فدخلوا يزحفون على استاههم فبدلوا وقالوا حطة : حبة فى شعرة رواه البخارى . وقال محمد بن اسحاق : عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله وسلم قال : دخلوا الباب - الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجدا - يزحفون على استاههم وهم يقولون : حنطة فى شعيرة . من أجل ذلك كان ما كان من أمر فيهم بإنزال الطاعون عليهم فأهلك منهم ألوفا كثيرة ، وهى سنة الله فى خلقه .

وإلى هنا نجد الإناء قد امتلأ بالمعاصى وطف الصاع بالشرور والآثام وضجت الأرض والسماء من هذا الطغيان الأثيم والفجور الذى بلغ عنان السماء ، ولم يعد هذا العصيان محتملا فلا يزدادون إلا غرورا وبات الأمر محتاجا إلى حزم وحسم وانتقام وإهلاك وتدمير على القوم المجرمين وكان الأمر كما قال الله عز وجل "فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين"[١] وكان ذلك إجابة لدعوة موسى عليهم إذ ضاق بهم ذرعا ورأى أنه لم يعد ينفع معهم أى نوع من أنواع التذكير بل إنهم ليزدادون مع المواعظ كفرا وعنادا "ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينه وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم" دعا موسى عليهم وأمن هارون على الدعاء واستجاب الله دعوتهما فطبع على قلوبهم وأهلك أموالهم وزروعهم قال الضحاك : جعلها الله - أموالهم - حجارة منقوشة كهيئة ما كانت عليه وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة . وهكذا كان العقاب أليما والنهاية شديدة وذهب فرعون وقومه الذين شجعوه على الفساد وزينوا له الطغيان وصاروا على مر الزمن درسا لكل متكبر وعبرة لكل طاغية أن يتدبر ويعظ نفسه ويرجع إلى الرشاد قبل فوات الأوان، قبل أن يندم ولات ساعة مندم .

انتهى - إذن - كل شئ حسب أمر الله تعالى "قد أجيبت دعوتكما فاستقيما"

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٦ .

قال محمد بن كعب القرظى وغيره : قد أجبنا كما فيما سألتما من تدمير آل فرعون . وانقشعت الغمة وزال الكابوس وتنسم موسى ومن معه أنسام الحرية بعد أن رأوا بأعينهم هلاك العدو الذى جرعهم كئوس الذل والهوان والقهر والمشقة والسخرة وذلك ماتشير إليه هذه الآيات الكريمة : "وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون"[1].

أما كيف تم إغراق هذا الطاغية : فإن الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يخرج ببنى إسرائيل فتبعهم فرعون وجنوده وكاد يلحق بهم فأوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق "ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا . لاتخاف دركا ولاتخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ماغشيهم وأضل فرعون قومه وماهدى"[2] نزل موسى ومن معه وسار على اليبس فى البحر ونزل فرعون وجنده وراءهم ويرى كل منهما صاحبه ووصل موسى إلى الشاطئ الآخر بينما كان فرعون فى منتصف الطريق - فى لجة البحر - وهنا كانت الضربة الالهية المنتظرة للمجرم الأثيم فانطبق البحر عليهم وغرقوا جميعا ووقف موسى ومن معه ينظرون إليهم ، قال أهل التفسير : (قال أصحاب موسى : إنا لمدركون) وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وأدركهم فرعون ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان وألح أصحاب موسى عليه فى السؤال : كيف النجاة والخلاص مما نحن فيه ؟ فقال لهم : إن ربى قد أمرنى أن أسلك هذا الطريق (إن معى ربى سيهدين) فكان أن فرج الله الكرب إذ أمر موسى أن يضرب البحر بالعصا فضربه فانفلق (فكان كل فرق كالطود العظيم) أى أصبح كل ناحية من البحر كالجبل الكبير ، وصار اثنى عشر طريقا لكل سبط من الأسباط طريق وأرسل الله الريح على الطرق فنشفت أرضها وكان من عناية الله بهم أن خرق لهم

---

(١) سورة يونس : ٩١ . (٢) سورة طه : ٧٩ .

الماء بين الطرق كالشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا وخرج بنوا إسرائيل من البحر فلما خرج آخرهم منه وصل فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى وكانوا مائة ألف فارس وهاله منظر البحر وهم أن يرجع وهيهات هيهات فقد نفذ القدر واستجيبت الدعوة.

ابتلعهم البحر وأدرك فرعون النهاية فقال : "لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين" ولم ينفعه هذا الايمان مصداقا لقوله تعالى : "فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قدخلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون"(١) روى الترمذى وابن جرير وأحمد : «عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما قال فرعون: (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال : قال لى جبريل عليه السلام: يامحمد لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة» - أخذت حالا من حال البحر : الحال هو الطين الأسود -

وغرق فرعون وغرقت معه الدولة بهلاك أمرائها ووزرائها وكبرائها وجيشها وأهل الرأى فيها ولم يبق فيها إلا العامة وصغار الناس نتيجة الخرق والغشم والاستبداد والجبروت ، وطمأن الله موسى ومن معه حتى لايشكوا فى موته . قال ابن عباس وغيره من السلف : إن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح وعليه درعه المعروفة على مرتفع من الأرض ليتحققوا موته وهلاكه .

وهكذا !!! ذهب الطغيان غير مأسوف عليه تشيعه اللعنات كلما جاء ذكره وذكر اسمه وصار عبرة لكل من يريد العبرة "واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين"(٢) .

....

(١) سورة غافر : ٨٥ .   (٢) سورة القصص : ٤٢ .

أمم سادت ثم أهلكتها المعصية

قال تعالى : "لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور" سورة سبأ : ١٧ .

١ - قصة سبأ ومافيها من عبرة : يراد بسبأ تلك الدولة التى قامت ببلاد اليمن قديما واتسعت رقعتها فكان فيها الثمار اللذيذة والزروع الكثيرة التى تفيض على أهلها ، وامتدت حضارتها فكثرت عندهم النعمة وزاد الخير وارتقى المجتمع ، وكثر عمرانها وارتقى فأصبح فيها القصور الشامخة والحدائق الخضراء ، وطاب هواؤها ورق نسيمها فلم تر فيها شيئا من البعوض والذباب وغيرها مما يتولد عن العفونة والوسخ والقاذورات «بلدة طيبة» قال غير واحد من الباحثين : إن المرأة من أهل سبأ كانت تمشى وعلى رأسها مكتلها بين البساتين المثمرة الخضراء فلا تمشى كثيرا إلا وقد امتلأ مكتلها من الثمر المتساقط من الأشجار .

كثر الخير فى الدولة وفاض النعيم وكانوا آمنين مطمئنين فيها يتقلبون فى أعطاف النعم من الأشجار والأطيان الخصبة والثمرات المتنوعة والقصور العالية والقنوات الجارية التى تمتلئ بالماء العذب الفرات والهواء النقى الطيب وآمنهم الله فى وطنهم فكانوا يسيرون بتجارتهم إلى القرى التى بارك الله فيها من الشام والحجاز فيجدون على امتداد الطريق المكان المريح الذى ينزلون فيه للراحة والأكل والشرب «بلدة طيبة» فكان الأحرى بهم أن يشكروا نعمة الله وأن يعرفوا فضله العميم حتى يحفظ لهم بلدتهم من الزوال لكنهم ساروا فى طريق سار فيه غيرهم من الأمم السابقة حين انحرفوا عن الطريق المستقيم ولم يستمعوا لدواعى الهداية والرشاد وكذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم .

وسوف تدرك أيها القارئ الكريم هذه العظمة التى بلغتها دولة سبأ إذا علمت أن كلمة سبأ التى أطلقت على الدولة التى سادت زمنا ما وبلغت شأوا كبيرا من الرقى

العمرانى والاجتماعى والحضارة التى جعلتها فى مصاف الدول الكبيرة الشهيرة فى الزمن القديم ، هذه الكلمة أصلها الأول كان اسما لرجل من العرب كما روى عن النبى عليه الصلاة والسلام ، قال الامام احمد رحمه الله : .. عن ابن عباس : أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ : ماهو ؟ رجل أم امرأة أم أرض؟ قال : بل هو رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير ، وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان» أنجب سبأ هذا أولادا كثر عددهم حتى صار منهم الملوك والأمراء - وكانت بلقيس صاحبة سليمان منهم - ولما أعرضوا عن هداية الله وبدلوا النعم عنادا وكفرا وأحلوا قومهم دار البوار وغرهم الترف وجحدوا النعمة ولم يشكروا الله عليها وبطروا وتكبروا ودعوا الله أن يباعد بين يمنهم وبين القرى التى بارك الله فيها بأن يجعل بينهم وبينها مفاوز وفلوات وصحارى حتى يركبوا الرواحل ويذوقوا مشقة السفر كما تحدث القرآن عنهم فى قول ربنا عز وجل «فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم» لما فعلوا ذلك عاجلهم الله بالعقوبة فشتت شملهم ومزقهم شر ممزق إذ قطعهم ربنا فى البلاد شر تقطيع وأضاع أوطانهم وثروتهم وأذهب مجدهم وعزهم ، كما قال تعالى : فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق» وصار الناس يضربون بهم المثل فى الضياع والتشتت والتمزق والتشرذم حتى قيل : «تفرقوا أيدى سبأ» وذلك درس مفيد لكل من تحدثه نفسه بالكفر وجحد نعمة الله عليه .

قال الله تعالى : "إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولايستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا انا لضالون . بل نحن محرومون " سورة القلم : ١٧ - ٢٧ .

ب - قصة أصحاب الجنة : على مسافة قصيرة قريبة من صنعاء اليمن تقطعها السيارة فى ساعة من الزمن يوجد مكان هذه القصة فى أرض قبيلة «أرحب» إحدى

قبائل اليمن وقد ذهبت إلى هذا المكان فى رحلة طلابية وأرشدنى إليه الطلاب من أبناء المنطقة إذ قالوا: إنا متوجهون إلى مكان الجنة التى أحرقها الله عقابا لأصحابها لمنع حق الفقراء والمساكين منها، وسرنا إلى هناك، فرأيت وياهول مارأيت... رأيت مكانا من الأرض منبسطا وفى جانب منه قطعة ناتئة قد ارتفعت قليلا محدودة بحدودها ومستطيلة قد اختلف لونها عن لون الأرض المعهود.. لون الأرض التى هى منها: فلون الأرض لون الطمى .. خصبة صالحة للزراعة وهى - أى القطعة- حجارة صلبة لونها أزرق داكن مائل إلى السواد غير صالح للزراعة لأن حجارتها صلبة جدا مدببة الأطراف كأنها أسنة الرماح لايستطيع الانسان السير فيها خشية أن تزل قدمه فيسقط بينها وسرت بجوارها قليلا أستطلع معالمها ولكننى رجعت فقد أردت أن انظر اليها من مكان مرتفع فصعدت على جبل بالقرب منها وعاد ذهنى إلى الوراء وتأملت قول الله تعالى: "فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم". فأيقنت أن الضربة الالهية للحديقة كانت قوية هائلة جعلت الأرض من قوتها تحترق ثم تفور وتغلى غليانا شديدا تحول بعده التراب إلى هذه الحجارة الداكنة ليكون عقابا لهؤلاء الأولاد الجهلاء الذين خرجوا على نظام أبيهم الصالح الذى كان يعطى الفقراء من فضل الله الذى عنده كل عام وهو ماجعل الفقراء يعرفون وقت الحصاد فيسرعون إليه والبهجة تظهر على وجوههم .

أنكر هؤلاء الشباب حق الفقراء والمساكين فى محصول الجنة بعد موت أبيهم وأرادوا أن يستأثروا بالزرع كله وأن يحصدوه بليل قبل أن يستيقظ الفقراء وناموا على هذه النية الخبيثة رغم تحذير أحدهم ألا يفعلوا والا تعرضوا لغضب الله وحرمانهم من نعمته.. لكنهم لم يقبلوا نصحه ولم يسمعوا لتحذيره.. وبات الأمر كأنه معركة بين طرفين متنازعين كل يغالب الآخر ويدافعه: مجموعة من الناس لاترضى بما عاش عليه أبوهم من صلاح وتقى ورحمة وبر وعطف على المحتاج والضعيف ونظام رسمه الخالق الرازق سبحانه وتعالى لهداية العباد ويريد له أن يحكم حياتهم وأن يطيعوا له ويسمعوا وينفذوا.. ثم ماذا بعد؟.. أليس الصبح بقريب؟

وقام الشباب إلى الحديقة كى ينفذوا خطتهم قبل أن يستيقظ الفقراء !!! لكنهم لم يجدوها !!! ماذا حدث ؟ إن ماحدث لاقبل للدنيا به ، حدث هول مروع .... رعب وفزع .... إحراق وتدمير حرمان وتضييق ... إن الذى حدث شئ يشيب من هوله الولدان ويذكر أهل الغفلة بأن خالق الكون ومالكه لايمكن ان تداس حرماته وتنتهك أوامره وترتفع رأس فى كونه وعلى الأرض تحاده وتعاند حكمه وتجهر بمعاصيه دون حياء وأدب وخوف وورع ، روى الحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى : الكبرياء ردائى فمن نازعنى ردائى قصمته » وروى أحمد وابو داود وابن ماجة عن أبى هريرة رضى الله عنه «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحد منهما قذفته فى النار » .. فليعلم الناس أجمعون فى شرق الدنيا وغربها ، فى كل مكان أن الاصرار على الذنب ومعاداة الرب – جل جلاله - لن يثمر الا تدميرا واغراقا وإهلاكا واحراقا .. قد يكون المذنب على طريق نجاة طالما هو تائب نادم يتحين فرصة لمتاب ويتمنى الخروج من ذنبه ويأسى على مافات من عمره ومن هنا يكون أقرب للهداية من غيره .. من هذا الذى وصل إلى درجة الاصرار على ماهو فيه فلا ينتفع بموعظة ولايهتدى بنصح .

ونعود إلى السؤال الذى سألنا: ماذا حدث؟ إن أصحاب الجنة لم يجدوها حين ذهبوا إليها بغلس قبل أن يستيقظ الفقراء، والجواب تكفلت به الآيات "فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم" كما وضح من الآيتين نزلت عليها صاعقة من السماء فأحرقتها وجعلتها أثرا بعد عين، وهكذا حرموا خيرها جزاءا وفاقا ليعلم كل عاص أن الله له بالمرصاد "ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين"، أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم والمعصية فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم. وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل. وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا كان قد هيئ له" ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون" قد حرموا خير جنتهم بذنبهم".

قال الله تعالى: "فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا: من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون. فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون" (فصلت : ١٥ - ١٦)

"وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. فهل ترى لهم من باقية" (الحاقة : ٦ - ٨)

***

"وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون" (فصلت : ٧)

"كذبت ثمود وعاد بالقارعة. فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية" (الحاقة: ٤ - ٥)

ج - قصة عاد وثمود : تبدأ قصة هود كما تبدأ قصص أخرى غيرها من قصص الدعوة إلى الله تعالى بإرسال الرسول إلى قومه، والقيام بدعوتهم والصبر عليهم ، والصمود أمام سخريتهم وأذاهم وعدم الخوف من بطشهم وتجبرهم والحرص على هدايتهم مهما كلفه هذا العمل من مشقة وجهد، ولذلك رأينا خطا مستقيما وطريقا واضحا يربط بين دعوات الرسل كلهم حتى مجئ الرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الخط: هو الدعوة إلى توحيد الله عز وجل وعبادته والانطواء تحت لواء الهداية ونبذ المعاصى والشرور والآثام .

ظهر هذا الخط الذى ربط بين الدعوات فى قول الله تعالى على لسان كل رسول من رسله الكرام "... قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره" ... قالها هود وقالها صالح وقالها نوح وشعيب ولوط وغيرهم وغيرهم ....

هذه هى بداية الدعوة التى قام بها كل رسول، وهى من غير شك دعوة إلى الهداية والتقوى والاستقامة والسعادة "وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله

مالكم من إله غيره أفلا تتقون"[1] دعوة هادئة.. أساسها وعمادها تربية النفس وخشوع القلب وعلى هذا الأساس يستقيم أمر الحياة وتهدأ القلوب بين الجوانح.. فهل تقبل الناس دعوة الله بقبول حسن؟.

إن قصص المرسلين مع أقوامهم كما بين القرآن كانت خلاف ذلك.. فما يكاد الرسول يعلن على قومه دعوته حتى يهب الملأ من قومه يعلنون رفضهم وعنادهم واتهامهم له بسفاهة الرأى وضلال القلب وكذب البرهان، قالوا لهود: "إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين" وأعلن قوم صالح أمام المؤمنين به أنهم كافرون برسالته "قال الذين استكبروا: إنا بالذى آمنتم به كافرون"[2] وهى المقالة التى قالها الكفار من أهل مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم "ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب"[3] .

ورد هود بنفى أن يكون به سفاهة رأى أو ضلال قلب أو كذب برهان وإنما هو رسول من عند الله لينصحهم ويعظهم ويذكرهم بنعم الله عليهم: إنه جعلهم خلفاء على الأرض من بعد هلاك قوم نوح وزادهم سعة فى العيش وبسطة فى الملك والحضارة وهم إن فهموا ذلك وتابوا إلى الله واستغفروه فسيرسل السماء عليهم مدرارا ويزدهم قوة إلى قوتهم ، فلم يبق لهم بعد هذا التوجيه الرفيق إلا أن يعبدوا الله عز وجل الذى وهبهم الخير كله.. لكنهم لم يقبلوا النصح ولم يستوعبوا الدعوة وردوا عليه دعوته بحجة أنها تنافى ما كان عليه آباؤهم "أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا" هل يسكت صاحب الدعوة عن دعوته إذا وجد صدودا أو إعراضا أو سخرية وتكذيبا؟ إن تاريخ الدعوات ينبئ بخلاف ذلك ولو سكت الدعاة عن دعواتهم لحكموا عليها بالجمود والتوقف وفات الغرض من عملهم، ومن أجل ذلك استمر هود فى وعظه لقومه: أن يتقوا الله ويعبدوه فهو الذى أمدهم بالأموال والبنين والجنات والعيون التى اشتملت على أنواع الثمار والزروع وإنى لخائف عليكم من عذاب يوم عظيم، لكن القوم لم يزدادوا على الوعظ إلا عنادا واستكبارا

---

(1) سورة الأعراف : ٦٥ . (2) سورة الأعراف : ٧٦ . (3) سورة الرعد : ٤٣ .

وعتوا وفجوروا وأعلنوا عن عصيانهم وجاهروا به واستعجلوا العذاب إن كان صادقا فى خبره ووعيده "فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين .. سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين[1].. مانحن بمعذبين.. مانحن بتاركى آلهتنا عن قولك[2].. ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء" .

وصل القوم إلى هذا الحد من العناد والطغيان .. إلى طلب العذاب - إن كان - استهزاء واحتقارا لشأنه وتكذيبا لقوله فكان ما كان من جريان قانون الله عليهم كما حدث لمن كان قبلهم من المكذبين من الاهلاك والتدمير والافناء فلا حس ولا حركة وذلك مايتحدث به القرآن بقول الله عز شأنه "ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ. وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود"[3] انتهى تاريخ القوم الظالمين الذين فجروا تاركين وراءهم أسفا وسخرية ومقتا لأفعالهم الذميمة .

وإنك لواجد نفس المحاولة التى مرت مع قوم هود.. قام بها صالح مع قومه فكانت النهاية هى النهاية التى انتهت بها حياة هؤلاء المجرمين قوم عاد إذ نزل بقوم صالح مانزل بالمكذبين من قبل.. من قوم نوح وهود..

قام صالح يذكر قومه بما يجب عليهم لله عز وجل ربهم الذى أنعم عليهم بنعم كثيرة ظاهرة وباطنة وكان فى مقدمة نعمهم ماتفضل به عليهم من نعمة الاستقرار على الأرض والأمن فوقها إذ جعلهم خلفاء عليها من بعد عاد إذ مهدها لهم ومكنهم منها واستعمرهم فيها فأنشأوا القصور العالية وأقاموا البنايات الضخمة ثم جعل لهم علامة تدل على صدق صالح الذى بعث فيهم مرسلا اليهم من الله كى يؤمنوا به ويستمعوا اليه وكانت "الناقة" هى العلامة التى تدل على صدق صالح أعظم صدق وأمروا أن يتركوا الناقة تعيش بينهم فلا يمسوها بسوء: إنها ستأكل من أرض الله وتشرب كذلك من فيض الله ولن تأخذ شيئا من مياههم فلها يوم من الماء.. ولهم يوم آخر منه فكانت بذلك آية من الآيات ومعجزة من المعجزات أن

(١) سورة الشعراء : ١٣٦ . (٢) سورة هود : ٥٣ . (٣) سورة هود : ٥٩ .

تشرب ماء القبيلة ثم تتركه فلا تشرب منه فى اليوم التالى.

ولقد استمر القوم فى عنادهم وكيدهم وزادوا من غلوائهم وحقدهم ولم يذعنوا لتحذيرات رسولهم بشأن الناقة من الحفاظ عليها وعدم إيذائها وليتهم فعلوا ما أوصاهم به إذا لكان خيرا لهم وإنما كانت عوامل الشر فيهم أعتى على الوعظ وأقوى من النصيحة وأعنف من كل مابذله صالح من ترغيب وترهيب وتهديدات بالعذاب إن هم اعتدوا عليها فقام أشقى القوم وهو "قدار بن سالف" بذبحها فقال لهم صالح: تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام وبعدها سيحل عليكم غضب الله وعذابه "قالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين.."

وجاء اليوم الموعود وحل وقت الخلاص منهم وحضرت ساعة الحسم وكان كما قال الله عز وجل: فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين"[١] وقال تعالى : "وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين"[٢] وقال تعالى : "وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين. فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين"[٣] رحماك ياأرحم الراحمين.. ارحمنا يارب.. لاتؤاخذنا بذنوبنا كما أخذت غيرنا.. أرأيت؟ إن ربك القدير على كل شئ قد أهلك المجرمين بكل أنواع المحق والإبادة والافناء حتى لم يبق منهم أحدا: أخذتهم الرجفة: .. وهى الزلزلة الشديدة فأصبحوا باركين على ركبهم من شدة الهول والرعب.. وأخذ الذين ظلموا الصيحة صوت قوى انخلعت به قلوبهم وفزعت منه نفوسهم فلم يحتملوا قوته .. فأخذتهم الصاعقة : وهى التى أحرقت الأشجار والزروع والمتاع والحيوان ولم تبق منهم فردا .. هكذا!! رجفة.. صيحة .. صاعقة .. ولاتنافى بين هذه الأنواع فإن الله عاقبهم بهذا كله، فقد أنزل الله بهم الصاعقة المحرقة المشتعلة بصوتها الشديد المرعب المدمر يصحبها زلزلة عنيفة هى الرجفة وكل ذلك فى يوم واحد فى لحظة حاسمة "فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم أجمعين. فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون"[٤].

---

(١) الأعراف : ٩١ . (٢) هود : ٦٧ . (٣) الذاريات: ٤٣. (٤) النمل: ٥١.

ومازالت هناك اثار من هذه الديار تشهد على أصحابها وتسجل مانزل بهم من إهلاك وتدمير وتدعوا إلى الموعظة والعبرة، قال الامام احمد: عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الابل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم" وقال أحمد أيضا : عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وهو بالحجر - لاتدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم" وفى بعض الروايات أنه عليه السلام لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين" .

قال الله تعالى : "ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئ بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لاتخف ولاتحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين. إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون" (العنكبوت : ٣٣- ٣٥)

د - قصة قوم لوط: نحن الآن أمام إجرام ليس للبشرية به عهد فلم يسبق لجماعة من الجماعات التى سبقت هؤلاء المجرمين أن عرفوا هذا النوع من الفحش والقبح ولا ارتكبوا مايقارب هذه القذارة والوسخ وانما هو ذنب جديد عرفه هؤلاء الذين فسدت فطرهم فارتكبوا جريمة لم يرتكبها أحد من العالمين فأساءوا إلى الانسانية اساءة بالغة من حيث إنها تسفر عن مجموعة من الجنايات على النفس والمجتمع لذلك وصفوا بأنهم جاهلون بفداحة هذه الفاحشة النكراء ومسرفون وعادون مما يدل على أنهم قد فسدت فطرهم وإنسانيتهم وسلكوا بها فى عداد البهائم حين ينزوا بعضها على بعض، وهذه شهادة الله تعالى يسجلها عليهم فى كتابه العزيز لتبقى سبة عالقة بسمعتهم وسيرتهم إلى يوم القيامة، قال عز من قائل: "إنكم لتأتون الرجال شهوة

من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون"[1] وقال تعالى: "أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون"[2] وقال سبحانه: "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون. أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون"[3].

ولقد كان الناس مع هذا الفحش من أقبح الخلق سيرة يخونون الرفيق ويقطعون الطريق.. يتربصون لكل من يمر بهم من المسافرين فيجتمعون عليه من كل ناحية ويأخذون مامعه من أمتعة ويتركونه يبكى ضياع ماله لايصدهم حياء ولايردهم دين .

ان الذى سبق ذكره يدل دلالة صادقة على أن قوم لوط المجرمين قد أسرفوا فى ارتكاب هذه الفاحشة وتجاوزوا بهذا الفحش حدود شريعة الله وصفاء الفطرة فكانوا بذلك فى القمة العليا من الجهل والسفه والطيش وفساد النفس والعقل فلاهم عرفوا ضرر هذه الجريمة النكراء على النسل وجنايتها على الفضيلة والصحة والآداب العامة ولاهم استحيوا من الجرم الأثيم فامتنعوا عنه .

كانت هذه الجريمة فاحشة لمجموعة من الأسباب :

فهى جناية على الفطرة البشرية السوية التى خلق الله الناس عليها وكانت منافية لها. وهى إذلال للرجال وضياع لما فيهم من إباء وشمم ومروءة وقوة إذ تؤثر على القوة العقلية فى الرجل فتختل مراكز التفكير فيه .

وهى مفسدة للشباب وتحطيم لأخلاقه وذلك بالإسراف فى تعاطى الشهوة وطلبها من أى ناحية كانت دون نظر إلى مصدر هذه الشهوة .

وهى سبب قوى لتعطيل النسل والاصابة بالعقم مما يحكم على هؤلاء اللائطين بالزوال من الحياة والانقراض لأن هذه الجريمة تؤثر على مناطق الانزال فى جسم الانسان وتساعد على القضاء على تركيب مواد المنى .

وهى سبب من أسباب انحراف النساء لأنها تعمل بالتدريج على انصراف الرجال

---

(١) سورة الأعراف: ٨١. (٢) سورة الشعراء: ١٦٥. (٣) سورة النمل: ٥٥.

عن النساء نتيجة ضعفهم عن مباشرتهن مما يساعد فى النهاية على انحرافهن وتعطيل أهم وظيفة الزواج وهى إيجاد النسل .

وهى تفتح بابا كبيرا من أبواب الشر والإثم فقد يأتى اللائط البهائم دون حياء وقد يتخذ هذه العادة ذريعة للاستمناء الذى يعمل على ضعف الجسم .

وهى بعد ماتقدم لها من اضرار جسيمة وأخطار على النفس والمجتمع تجر وراءها أمراض الزنا من ضيق الصدر وخفقان القلب والضعف العام وحمى التيفود والدوسنطاريا فضلا عن مرضى الزهرى والسيلان .. هذا ما أنتجته الدراسات الحديثة التى درست مساوئ مرض اللواط الذى ابتليت به البشرية منذ عهد طويل .

من أجل ذلك كان العقاب الالهى لهؤلاء المجرمين فى منتهى القسوة صارما كل الصرامة.. شديدا غاية الشدة.. هل سمعت أن أمة من الأمم- فى قديم الزمان وحديثه- عوقبت بمطر الحجارة الموقدة بعد أن نكست تنكيسا فكان أعلاها أسفلها، وأسفلها صار أعلاها إلا هؤلاء المجرمين قوم لوط.

إن ربنا القدير سبحانه وتعالى، جعل الجزاء من جنس العمل ومن تتبع آيات الكتاب العزيز ظهر لى أن عقاب الله للمجرمين يماثل فى صرامته وقوته وعنفه مايفعل المجرمون من آثام ومايهجمون عليه من ذنوب حتى ينكل بهم تنكيلا ويجعلهم عبرة لغيرهم ولقد استحق قوم لوط هذه الشدة جزاء جريمتهم التى عرفت عنهم ولم تعرف عند غيرهم فورثوا الانسانية وباءا قاتلا وجرما شديدا قذرا فكان عليهم جزاء الجريمة وعقاب من عمل بها إلى يوم القيامة ..

لقد أفسدت جريمة اللواطة التى اخترعها قوم لوط فطرتهم الصافية التى خلق الله الناس عليها وشوهت عقولهم حتى فهموا دعوة لوط لهم أن يتطهروا من الرجس والفحش جريمة يعاقب عليها بالطرد من جماعتهم والاخراج من القرية وذلك من طول إلفهم من ممارسة اللواطة وتعاطيها، هددوا لوطا بالطرد والإخراج من القرية إذا لم يترك الدعوة إلى التطهر والتعفف وترك القبح والقذارة الأمر الذى دل على ماوصل إليه القوم من شذوذ فى الفكر والسلوك "وماكان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم

من قريتكم إنهم أناس يتطهرون"[1]، "قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين - قال إنى لعملكم من القالين"[2] أرأيت؟!! إلى منطق المجرمين وفعلهم أمام الدعوة الحسنة.. أخرجوهم من قريتكم.. لتكونن من المخرجين .. لماذا؟ هل فعل شيئا يستحق الطرد من الجماعة والاخراج من القرية؟ إن كل مافعل هو أنه يطلب التطهر النفسى والعفاف الاجتماعى .. إنهم أناس يتطهرون وهم لايريدون ذلك التطهر والنظافة .. إنه منطق الطغيان والفجور والعهر والباطل الذى يعلنه أصحابه على الناس دائما أن ليس لأحد رأى أمام رأيهم ولاتصرف إلا بإذنهم وما على الناس إلا أن يسمعوا لهم ويطيعوا .

والقرآن الكريم خير من شرح هذه القضية - قضية الطغيان فى مواجهة الاصلاح والمصلحين - إنه جلاها أعظم تجلية فى كل عصر مع كل أمة سبقت، وكان بيانه شافيا كافيا بين السلوك الانسانى لكل مجموعة من البشر أمام هداية المصلحين ومن عجب أنك ترى نمطا واحدا من السلوك المعوج المنحرف عن هداية الله واتفاقا واضحا فى الطبع والعمل فى مواجهة حملة الدعوات الاصلاحية ولنستمع معا إلى هذه الآية الكريمة "وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين .. ولنسكنكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد"[3] .

كان عقاب الله لقوم لوط شديدا .. قاسيا عنيفا ، يماثل فى شدته وعنفه مافعله المجرمون من فاحشة قبيحة تأباها الفطر السليمة وترفضها الطباع الأبية، وجاء الوقت المعهود الذى وقته ربنا عز شأنه لتنفيذ العقاب فيهم واسدال الستار عليهم واراحة المؤمنين من رجسهم وقذارتهم وتطهير الأرض من فحشهم ووساختهم وكان كما وضحت الآيات "قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولايلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة

(١) سورة الأعراف : ٥٢. (٢) سورة الشعراء: ١٦٨. (٣) سورة إبراهيم: ١٤ .

من سجيل منضود. مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد"[1] وقال تعالى: "قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين. إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين. إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين... فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل. إن فى ذلك لآيات للمتوسمين"[2] ، قال معمر: عن قتادة عن حذيفة بن اليمان قال: كان ابراهيم عليه السلام يأتى قوم لوط فيقول: أنهاكم الله أن تعرضوا لعقوبته؟ فلم يطيعوه حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل فى أرض له، فدعاهم إلى الضيافة فقالوا: إنا ضيوفك الليلة، وكان الله قد عهد الى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات ، فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر فمشى بهم ساعة ثم التفت إليهم فقال: أما تعلمون مايعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شرا منهم، أين أذهب بكم؟ إلى قومى وهم أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوها هذه واحدة!! ثم مشى معهم ساعة، فلما توسط القرية واشفق عليهم واستحيا منهم قال: أما تعلمون مايعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم! إن قومى أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال: احفظوا هاتان اثنتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال: إن قومى أشر خلق الله، أما تعلمون مايعمل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شرا منهم، فقال جبريل للملائكة: احفظوا، هذه ثلاث .. قد حق العذاب. فلما دخلوا ذهبت عجوز السوء فصعدت - على الدار - فلوحت بثوبها فأتاها الفساق يهرعون سراعا، قالوا: ماعندك؟ قالت: ضيف لوطا قوم ما رأيت قطا أحسن وجوها منهم ولا أطيب ريحا منهم، فهرعوا يسارعون إلى الباب فعالجهم لوط على الباب فدافعوه طويلا .. هو داخل وهم خارج .. يناشدهم الله ويقول: (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فقام الملك فلز الباب- يقول: فسده - واستأذن جبريل فى عقوبتهم فأذن الله له فقام فى الصورة التى

---

(١) سـورة هود : ٥٩ . (٢) سـورة الحجـر : ٥٨ - ٧٥ .

يكون فيها فى السماء فنشر جناحه .. فقال: يالوط: (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) إمعن يالوط عن الباب ودعنى واياهم فتنحى لوط عن الباب فخرج إليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم فصاروا عميا لايعرفون الطريق ولايهتدون إلى بيوتهم، ثم أمر لوط فاحتمل بأهله فى ليلته قال: (فأسر بأهلك بقطع من الليل)". وروى عن محمد بن كعب وقتادة والسدى نحو هذا. الطبرى .

وجاء وقت العقاب وحضرت لحظة الانتقام فشهدت قرى (سدوم) - موطن قوم لوط - ضربة الهية قاسية عنيفة عاتية زلزلت كيانهم وأبادتهم عن آخرهم فلم تترك منهم أحدا وكان ذلك جزاء وفاقا وانتقاما من القوم المجرمين على هذه المعصية القذرة التى اخترعوها وزينها الشيطان لهم، قال محمد بن كعب القرظى: كانت قرى قوم لوط خمس قريات: (سدوم) وهى العظمى و(صعبة) و(صعوة) و(عثرة) و(دوما) احتملها جبريل بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها وأصوات دجاجها ثم كفأها على وجهها ثم اتبعها الله بالحجارة ، يقول الله تعالى: "جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل" فأهلكها الله وماحولها من المؤتفكات" وقال السدى: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أراضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله تعالى: "والمؤتفكة أهوى . فغشاها ماغشى. فبأى آلاء ربك تتمارى" .

وفى نهاية هذا البحث نحب أن نبين حكم العقوبة التى جعلها الاسلام ردعا لهذه الجريمة وقطعا لدابر مرتكبها حتى يكونوا عبرة لغيرهم فقد ورد فى السنن عن ابن عباس مرفوعا "من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به" .

وذهب الامام الشافعى وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصنا أو غير محصن عملا بهذا الحديث .. وذهب الامام ابو حنيفة - فى كيفية القتل للائط - إلى أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط .

كلمة أخيرة : رأينا خطر هذه الجريمة على الدين والنفس والصحة والمجتمع ..

ورأينا كيف كان العقاب الالهى لمرتكبها.. كيف دمر الله قرى قوم لوط مما جعل منهم عبرة لمن جاء بعدهم.. انفردوا بعقاب قاس مؤلم مهين حتى يعلم القريب والبعيد أن نهاية العهر والزنا والفجور وخيمة ولم يفلت هؤلاء العصاة من قبضة الله عز وجل .

فإذا جاء فى العصر الحديث من يدعو إلى الشذوذ الجنسى علنا دون حياء ومن فوق منصة المجالس النيابية حتى يأخذ صفة القانون بالإجماع من ممثلى الأمة، وإذا حاول البعض أن يجعل منه بديلا من الزواج الطبيعى، وإذا انحرف بعض الشباب فى أى مكان إلى هذه الجريمة القذرة محاولا أن يجعل منها عملا تدعو إليه روح العصر ونظامه وتسكت عنه الحكومات بحجة عدم التدخل فى الحرية الشخصية وأن هذه أمور لا تستحق الانتباه ولا الاعتناء بشأنه.. إذا سرت هذه الموجة الخبيثة الجائحة فى المجتمع فى أى مكان على وجه الأرض ولم تجد من ينكر عليها ويأخذ على أيدى القائمين عليها ويقف فى وجههم حتى يردهم عن هذا الغى والفسق فإن ذلك إيذان بأن نقمة من الله ستحل على هذا المكان ودمدمة عنيفة تجتاح المجرمين الفسقة مع مايملكون ورجفة مزلزلة لأركان هؤلاء الفجرة الذين تنتشر بينهم هذه الموبقات وسيجعل الله منهم عبرة العصر ودرسا للناس وحديثهم وإلحاقهم بأمثالهم من قبل "قوم لوط" .

قال الله تعالى : "واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا. كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا. وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وماأظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا" (سورة الكهف : ٣٢ - ٤٤).

نفوس تؤخذ منها دروس

ا - قصة صاحب الجنتين : إنها قصة الصراع بين الحق والباطل .. الخير والشر يتنازعان .. التواضع والغرور يعتركان .. الايمان والكفران يتواجهان .. الاعتراف بالنعمة وجحودها ..

إنها القصة التى تطرح الانسان أمام النفس المؤمنة بإيمانه ويقينه وتواضعه .. والانسان بجحوده ونكرانه .. إنها تقدم الايمان والكفر فى لقاء .. والحق والباطل فى صراع وليأخذ الانسان منهما ماشاءت له نفسه ويسلك أى طريق يحب "إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا" ،هذا ما يجب أن يقف عنده الناس حتى ينتفعوا بمثل هذه القصص التى جاء بها القرآن من اجل اعداد النفس وتقويم عوجها دون نظر إلى زمنها ومكانها .

هذان أخوان: أحدهما مؤمن بالله واليوم الآخر .. مؤمن بالحق والخير .. بالبعث والحساب. والآخر كافر بربه .. جاحد لفضله ونعمته.. منكر لقيامة الناس وحسابهم.. كانا من بنى إسرائيل وورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فأخذ كل واحد منهما النصف فاشترى الكافر وهو - قطروس - أرضا ، فقال المؤمن: -يهوذا - اللهم إنى أشترى منك أرضا فى الجنة بألف فتصدق به، ثم تزوج أخوه امرأة بألف، فقال المؤمن : اللهم إنى جعلت ألفا صداقا للحور العين، ثم اشترى أخوه خدما وضياعا بألف فقال المؤمن: اللهم إنى اشتريت منك الولدان بألف فتصدق به، ثم أصابه حاجة فجلس لأخيه فى طريق فمر به فى حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله ...

وعلى سنة استدراج الله للكفرة والملاحدة والمكذبين حتى يأخذهم بشدة وعلى غرة فإنه سبحانه قد نمى لهذا الكافر ماله حتى يزيد من طغيانه وزاد له فى ثروته حتى يجعل منه عبرة وموعظة لمن يأتى من بعده:

هذه الأرض التى اشتراها الكافر صيرها الله عز وجل له جنتين كبيرتين فيهما من كل الثمرات والزورع والنخيل والمياه العذبة والظل الظليل والهواء الجميل ، نعما

تملأ العين بهجة ومسرة وأموالا تجعل المغرورين يتيهون على الفقراء والمساكين ويختالون على أهل الهدى والصلاح .. وإن شئت أن تعلم مقدار ما كانت عليه الجنتان من عظمة وكثرة ونماء وبهجة فأعد قراءة الآيات مرة ومرة ومنها تعلم مقدار ما كانت عليه هاتان الجنتان من نماء وكثرة وأوصاف جميلة:

أولا: إن الله عز شأنه وصف حديقة الكافر بأنها جنة، فأصل الكلمة - لغويا - من الستر والتغطية لاستتار ما يستتر فيها بظل أشجارها وهذا - من غير شك - كناية عن التفاف اشجارها وكثرتها .

ثانيا : ووصفها سبحانه وتعالى بصفة تدل على مقدار مافيها من حسن المنظر وجمال التنسيق وروعة الاعداد ودقة التقسيم والتوزيع كما قال: وحففناهما بنخل" وهى صفة يعرف عظمتها أصحاب البساتين ومعنى ذلك أن الله جعل النخل محيطا بها كما قال تعالى : "وترى الملائكة حافين من حول العرش" أى محيطين به .

ثالثا : ووصفها الله سبحانه بما يدل على أنها جامعة لل[illegible] ، والأقوات والزروع والثمرات متسعة الأطراف متصلة الجنبات تؤتى أكلها فى كل وقت وحين فمنافعها دارة متجددة متواصلة ذلك ما يشير إليه قول ربنا تعالى: "وجعلنا بينهما زرعا" .

رابعا : ووصفها الله سبحانه بأنها قد أعطت خيرها وثمرها وغلتها ولم يضع منه شئ .. أى إنها استوت على سوقها حتى ملأت عين زارعها كما قال تعالى : "كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا" أى لم تنقص منه شيئا ، فالظلم : النقصان، تقول: الرجل ظلمنى حقى وتريد نقصنى.

خامسا: ووصفها الله سبحانه بأنها قد وصلت إلى درجة عالية من الرقى الزراعى وكمال الهندسة فقد كملت مرافقها فلم ينقصها شئ كانت فى حاجة إليه: إن السبب الرئيسى فى حياة الشباب هو الماء من أجل الرى والسقى وقد حباها الله عز وجل نهرا متشعب الروافد يسرى وسطهما وينساب بين جنباتهما تحدث عنه ربى سبحانه بالعبارة البليغة التى تدل على المبالغة والكثرة "وفجرنا خلالهما نهرا" .

سادسا : وبقى من أوصاف هذه النعمة الغالية والتحفة الزراعية الأنيقة أن الله

سبحانه تفضل على الكافر فجعل محصول الاشجار كثيرا.. وكثيرا جدا "وكان له ثمر" لعله يؤمن.. لعله يشكر.. لعله يعرف طريق الهداية إلى الله الذى أنعم وتفضل.. أو على معنى القراءة الأخرى "وكان له ثمر" أى كان له مع هاتين الجنتين الجميلتين نوع آخر من الأموال من الذهب والفضة، هذا مايذكره أهل اللغة من المعانى على القراءتين "ثمر: بفتح الثاء والميم" و"ثمر : بضم الثاء والميم" كان أبو عمرو بن العلاء يقول: الثمر: المال والولد" وأنشد للحارث بن كلدة:

ولقد رأيت معاشرا

قد أثمروا مالا وولدا

وقال النابغة :

مهلا فداء لك الأقوام كلهم

ما أثمروه من مال ومن ولد

ثم ماذا بعد ؟!! كان المنتظر من هذا الرجل الذى أنعم الله عليه بهذا كله أن يشكر لله .. أن يؤمن به .. أن يعلم أن واجب النعمة يحتم عليه أن يكون طوع أمر الله .. إيمانا وإخباتا .. شكرا وتواضعا .. لكن ما إن وصل الرجل إلى هذه الدرجة من الثراء والغنى حتى بطر وجحد وطغى وعصى الجبار الأعلى وكان رده على أخيه المؤمن الفقير كما تحدثت عنه الآيات كفرا ونكرانا وبعدا عن طريق الهداية والإيمان "أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا" يعنى أنه أكثر منه خدما وحشما وولدا، قال قتادة: تلك - والله - أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر" فظلم بهذا التكبر نفسه وكفر بربه واقتنع بأن هذه الثروة رالزروع والثمار لن تهلك أبدا وزاد على ذلك أنه أنكر المعاد فما يظن أن القيامة قادمة ولو فرض وجاءت هذه القيامة فسيكون له هناك أحسن من ذلك وأكثر ولولا ؛كرامته على الله ما أعطاه ذلك كله "وماأظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا" وكما قال فى الآية الأخرى "ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى" .

وبماذا كان الرد على هذا الكافر الجاحد؟ رد أخوه المؤمن عليه: بأنك قد كفرت

بالله الخالق الرازق وسيكون عليك وزر كفرك وجزاء جحودك وسوف تندم وعندئذ لاينفع الندم، أما أنا فباق على إيمانى بربى وهو طريق الصالحين ولو أنك تعترف بنعمة الله عليك وتعرف فضله العميم وتذكره عند رؤيتك لهذه النعم وتقول "ماشاء الله لاقوة إلا بالله" لصرت فى عداد الشاكرين ولعل الله عز شأنه يعطينى - من فضله - خيرا من جنتك ويهلكها لك بصاعقة تنزل عليها من السماء أو يغور ماؤها فى الأرض فلا تستطيع لها ريا وسقيا ... هذا منطق الايمان .. هادئ جميل .. متواضع يبعث فى النفس الخاشعة هيبة وطمأنينة وأدبا وخشية .

ونزلت النازلة ،وجاءت الصاعقة ، ووقعت الهلكة الجائحة ، وحانت ساعة الانتقام من المجرم الأثيم كى تسلب منه النعمة التى لم يشكر الله عليها حتى يقف بين يدى الله احكم الحاكمين ليكيل العذاب ويكمل العقاب .. وكانت النهاية الحتمية لهذا المجرم فى الدنيا كما قال الله تعالى: "وأحيط بثمره" أرأيت!! كانت الاحاطة للحديقة أولا بالنخل حفظا وعناية بها ورعاية لتمتلئ النفس بها بهجة ومسرة وعند الانتقام تحولت الاحاطة إلى تدمير وتخريب يملأ النفس حسرة وغما "على ماأنفق فيها وهى خاوية على عروشها" وندم ولكن بعد فوات الأوان، وقع ماوقع فهل استطاع ان يدفع عنها مانزل بها أو كان له من أصدقائه وخلصائه من يدفع عنه أو يحفظها عليه .. كلا! فالنصرة والولاية لله عز وجل وليست لغيره فى يوم القيامة.. يوم الحساب.. "يوم لاينفع مال ولابنون . إلا من أتى الله بقلب سليم" .

قال الله تعالى : "إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندى ..إلخ وما كان من المنتصرين" (القصص : ٧٦ - ٨٣).

إلى قوارين العالم الاسلامى فى العصر الحديث:

نسوق قصة قارون القديم كى يتعظوا ويعتبروا بما حدث لزميلهم من قبل، فينفقوا بعض ماعندهم من مدخرات فى البنوك العالمية فى سبيل تقدم الأمة الاسلامية ورفاهيتها فإن الأمة تتقدم بمساعدة أبنائها وتضحيتهم فاذا تقدموا بالبذل والعطاء فسوف تأخذ مسيرتها فى المجتمع الدولى وتنهض سريعا على حين تتأخر ويذوى عودها إذا لم يمدوا لها يد البذل والمعونة ...

قارون بنى إسرائيل من أقرباء موسى : طغى وبغى وتكبر ولم يعترف بفضل ربه عليه، إذ آتاه الله كثرة فى الأموال التى فاضت بها خزائنه وامتلأت منها صناديقه حتى أثقل الحفظة حمل مفاتحها كما آتاه بسطة فى العيش فكان يعيش بين قومه عيشة البذخ والترف كما كان يلبس الملابس الفاخرة ، كما آتاه سعة فى الرزق فكان يسكن القصور العامرة بمباهج الحياة من العبيد والخدم وغير ذلك من ألوان النعيم .

اجتمع بما ذكر لقارون كل أسباب السعادة فى الدنيا وكان خليقا به أن يشكر الله على نعمه ويطيعه ويتقيه على ماأسداه إليه من راحة بال وهناءة حال وبذلك يحفظ الله عليه خيره ويديمه عليه "لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد" وكما قال القائل:

إذا كنت فى نعمة فارعها
فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله
فإن الإله سريع النقم

كانت نقطة الضعف فى قارون بسبب المال، وللمال بريق ولمعان ومازال كذلك - وسيظل - منذ الأزل وإلى قيام الساعة ، فقد جعل قارون يطغى ويتجبر ويغتر ويتكبر، يزعم أن الناس ليسوا مثله وماخلقوا إلا مسخرين له فإذا تكلم فما عليهم إلا أن يطأطئوا الرءوس إحتراما لرأيه وطاعة لمشيئته .

لفت طغيان قارون وبغيه نظر قومه إذ رأوه لاهم له إلا الاستكثار من المال يحوزه ويحتويه ويختزنه ويدخره ولا عليه بعد ذلك أن يموت غيره جوعا فحاولوا أن ينبهوه إلى سوء مايفعل من الاقبال على المال والاستئثار به فإن عاقبة البطر وخيمة وان نهاية الاغترار بالمال موجعة مؤلمة وقالوا له : "لاتفرح إن الله لايحب الفرحين" لاتفرح بما أوتيت .. ولاتغتر بما وهب لك واجعله وسيلة لقضاء حوائجك فى الدنيا واتخذه طريقا إلى مرضاة الله فى الدار الآخرة وما كان نصح الناصحين له إلا لحرصهم على نعمته وحب الخير له، فهل قبل النصح منهم وحسبه حبا منهم له.؟ كلا!! كان رده عليهم كما حدث القرآن عنه "إنما أوتيته على علم عندى" كان شأن قارون شأن غيره من طغاة المال فى كل زمان ومكان حين يزيدهم الثراء الواسع علوا فى الأرض واستكبارا على الخلق لاتنفعهم المواعظ ولايتواضعون لارشاد، وإنما يعدون النصيحة إساءة ويقولون عن الموعظة إنها اعتداء عليهم وإهانة وذلك شر مايبتلى به اغنياء الامم فى القديم والحديث على السواء كما قال عز شأنه: "إن الانسان ليطغى . أن رآه استغنى" .. وهذه لاشك أولى خصال الغرور المادى الذى يسيطر على أصحاب الثراء العريض .

والخصلة الثانية من خصال هؤلاء المتكبرين عنفهم فى مواجهةرجال الاصلاح ودعاة الهدى والبر والتعاون كأن قلوبهم قد قدت من صخر فلا ترق لأنة مسكين ولاترحم محتاجا وإنك لواجد ذلك فى رد قارون على قومه الذى رد به عليهم، وكذلك مارد به المترفون أصحاب الثراء فى كل أمة على رسلهم "وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين. قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن اكثر الناس لايعلمون. وماأموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون"[1].

---

(١) ســورة سبأ : ٣٤ .

وبقيت خصلة ثالثة من خصال هؤلاء الفجرة الطغاة وهى إنهم لايستحون من طغيان ولا يبقون على محبة مع الناس وانما يشمخون بأنوفهم ويتيهون بغناهم وبذلك تعرضوا لغضب الله وسخطه وصدق الله إذ يقول: "إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم" وقال تعالى "... ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" .

وصل الوضع بقارون إلى الدرجة التى لم يعد يقبل فيها النصيحة وتكبر على قومه فكان لابد من حسم لهذه المسألة والانتهاء من هذا الاستعلاء والتخلص من هذا الموقف الشائن فوقف موسى وهو الرسول المصلح أمامه يوجه ويأمر وينهى برسالة الله وهديه: أعلن اليه موسى أن أد زكاة مالك حفظا له من الضياع والبوار وأحسن إلى الفقراء والمساكين من قومك وعشيرتك فإن فى المال حقوقا وواجبات وأصر موسى على هذا الموقف وحذر وأنذر ورغب وأرهب، فهل استجاب الطاغية لنداء الله وتوجيهه وهو حق وصدق؟ إن القرآن يسجل عليه أنه استمرأ العناد والبغى والفخر والاستعلاء "فخرج على قومه فى زينته" ولم يسكت موسى على هذا التحدى والعناد ، وقاوم وأصر إصرارا لأنه يحمل كلمة الله ورسالته وهو أمر الله اليه ولامناص من القيام به فلا تأخير عنه مهما كلفه ذلك من مشقة وانتقل الصراع بين الاثنين الى ميدان المواجهة وبات الصراع كأنه معركة بين خصمين متنازعين متحاربين كل منهما يحاول أن يفحم الآخر ويهزمه: حاول قارون بالمال أن يصرف الناس عن رسالة الخير والهدى وأن يفضهم من حول موسى ووقف هذا الأخير برسالته ومعه جماعة المؤمنين وقفة صامدة متوكلا على ربه لايصرفه عن ذلك سطوة قارون وغناه واستعان على هذا العناد بالدعاء والانابة الى الله وهو مايملكه المرسلون فى شدائدهم وهو أمضى سلاح لأنه يتصل بالله بأقوى سبب وأعظم صلة سبب التوكل على الله واللجوء الى جنابه وصلة العبد الضعيف الذى لاوزر له الا معونة ربه والفوز برضاه .. وكان أن تجاوبت مع موسى معونة الله وقدرته ، فذكر أن هلاك قارون كان عن دعوة نبى الله موسى عليه السلام واختلف فى سببه عن

ابن عباس والسدى: أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى إسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله فتقول: ياموسى إنك فعلت بى كذا وكذا، فلما قالت فى الملأ ذلك لموسى عليه السلام أرعد من الفرق وأقبل عليها وصلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرتنى بالذى حملك على ما قلت ؟ فقالت: أما اذ نشدتنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا على أن أقول لك وأنا استغفر الله وأتوب اليه فعند ذلك خر موسى ساجدا لله عز وجل وسأل الله فى قارون فأوحى الله اليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك" رواه الطبرى .

وخرج موسى من هذه الفعلة الشائنة والبلاغ الكاذب مرفوع الرأس مشرق الوجه إذ استجاب الله لدعائه على المجرم وخسف به وبداره الأرض فما نصره اعوانه ولادفع عنه خلصاؤه والمقربون إليه وابتلعته الأرض وغاصت فيها قصوره وعقاره وغابت بداخلها أمواله وكنوزه .

ورأى قومه ذلك فرجعوا عن أمنيتهم أن يكونوا مثله وحمدوا الله على أنهم لم يكونوا كذلك وهتفوا من أعماق قلوبهم قائلين "لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون" وذهب غير مأسوف عليه من هذه الدنيا ليجد العذاب المهين عند الله أحكم الحاكمين جزاءا على ما كان منه فى الدنيا من عمل سئ وطغيان وبغى فلن تكون الآخرة إلا للصالحين الصادقين .. الطائعين التائبين .. "تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين".

كلمة الختام

بعد هذه الجولة التى طالت شيئا ما يحسن بنا أن نقول: إن الموضوع الذى تناولته الدراسة موضوع ممتع حقا، والتوفر على دراسته لايخلو من فائدة .. وفائدة كبيرة حسنة فعنه استطعنا أن ننظر عن قرب إلى مصارع الطغاة الفجرة فى كثير من عصور التاريخ، ورأينا كيف كان العقاب قاسيا .. مؤلما .. مهينا، يناسب مافعله المجرمون فى حق الانسانية وحق ربهم الذى خلقهم ورزقهم وحق رسلهم الذين حرصوا على هدايتهم وحب الخير والسعادة لهم فألحقوا بهذه المخالفات أفدح الضرر بأنفسهم وماظلمهم الله .

تولى الوحى الأمين الذى تنزل من عند الله رب العالمين شرح هذا كله وما كان يمكن ان يعرف ذلك الأمر بالتفصيل لولا نزول القرآن الكريم الذى تحدث عن هذه الأمم التى كانت فى غابر الأزمان وماحل بهم من هلاك وإبادة ومحق وتدمير .

ولقد كان العذاب أشد قسوة وايلاما .. والحرمان من النعم اعنف وأعظم .. والتخريب الذى نزل بالأقوام أبقى أثرا على الزمن ليكون ردعا للإجرام وقطعا لدابر الفسوق والجبروت بعد الانذار والارشاد والرفق فى التوجيه .. وما كان يمكن - أيضا - أن يكون العقاب غير ذلك بعد استنفاد كل وسائل الهداية والبلاغ على لسان الرسل الكرام .

وإننا إذ نقدم هذه الدراسة نحب أن نقول للناس - عامة - والمسلمين - على وجه الخصوص - : إننا نعيش فى عصر كثرت فيه أنواع العهر والفسق والمجون .. الظلم والاستغلال والاستبداد .. الخمر والزنا واللواطة وعدم الاحتكام إلى شرع الله .. بخس الكيل والميزان وأكل مال اليتيم .. السرقات المقننة والرشوة التى تحولت فى العرف إلى نفحة .. الربا الذى سمى باسم عجيب فائدة .. المحسوبية والاعتداء على حرمات الشعوب وغير ذلك مما يشيع من الذنوب فى كل مكان من العالم .. كل ذلك كفيل بأن يهد كياننا ويجعلنا أثرا بعد عين .

إن واحدا - فقط - من الذى مر ذكره من أنواع المعاصى زلزل أركان أمة شاع فيها فهدم بنيانها وجعلها عبرة ومثلا للآخرين وصارت تاريخا يدرس ، وقصة تتلى، وحضارة بائدة بعد أن كانت سائدة .

أخبر القرآن عن قرى قوم لوط بأنها فسقت عن أمر الله واخترعت ذنبا قذرا وخما لم يعرفه فرد أو جماعة من قبل ، فهل تتوقع عقابا أعنف وأقسى مما نزل بهم!! أمطرت ديارهم بالحجارة الموقدة بعد أن دفنوا بقراهم ومايملكون فى باطن الأرض!! كأن الله تعالى يريد - وهو أعلم بمراده - أن يطهر الأرض من رجسهم فلا يبقى أحد منهم فعل هذه الفاحشة وبقى مكانهم خرابا بلقعا لانبات فيه ولازرع كما بقيت أماكن أقوام هود وصالح فى الأحقاف وديار ثمود ومكان أصحاب الجنة .. تنعى أصحابها وتنبه الناس إلى شؤم ما كانوا يعملون .

واليوم !! نقول للناس أجمعين .. للدنيا كلها شرقا وغربا .. حذار من غضب الله: إن كثرة الحروب المهلكة .. والبراكين المزلزلة .. والفيضانات المدمرة .. والأعاصير الجائحة والأمراض الفتاكة التى تصيب الانسان والحيوانات والنبات ولايعرف لها دفع أو دواء هنا وهناك فى كل مكان من الدنيا .. كل هذه إنذارات موجهة إلى الناس: أن عودوا إلى الله واتركوا معاصيه واعرفوا طريقه المستقيم ..

فليتنبه الغافلون .. وليتب العصاة المذنبون .. قبل فوات الأوان .. وحينئذ لاينفع الندم ..

"ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين" .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم ،،،،

الفهــــرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٤٠٣/ ١٩٩١

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١